سلسلة أخطاء في السلوك والتعامل (٦)

أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة

محمد بن إبراهيم الحمد

ح دار ابن خزيمة للنشر، ١٤١٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحمـــد، محمـــد إبـراهـــيم ..
أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة . ـ الرياض .
١٤٨ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك : ٤ - ٩٦ - ٧٤٧ - ٩٩٦٠
١- الآداب الإسلامية ٢- الأخلاق الإسلامية
أ- العنـــوان
ديوي ٢١٢,٨ ١٦/٢٤٩٥

رقم الإيداع: ١٦/٢٤٩٥
ردمك: ٤- ٩٦- ٧٤٧- ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

دار ابن خزيمة
للنشر والتوزيع
هاتف : ٤٧٦٩٩٣٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهـد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعـــد:

فإن للنـاس مجـالسَ يرتـادونهـا، وبينهم أحـاديث يتداولونها ويتجـاذبون أطرافها، ولكل من المحادثة والمجالسة آداب جميلة، وسنن قويمـة، يحسن بالمـرء مراعاتها، ويجمل به أن يتخلق بها، ويتجنب ما ينـافيهـا؛ ليكون حديثه ماتعاً، ومجلسه ممرعاً، تسوده الحكمة، وتغشاه السكينة، وتتنزل عليه الرحمة.

وإن المتأمل لأحاديثنا ومجالسنا ليلحظُ خللاً كبيراً، وتقصيراً كثيراً؛ ذلك أنها تعمر ـ غالباً ـ بالهذر الضار، واللغو الباطل، الذي لا طائل تحته، ولا فائدة ترجى من ورائه.

فلا يعالج في تلك المجالس قضية، ولا يؤمر فيها بصدقة، أو معروف، أو إصلاح بين الناس.

بل ربما أضحت مراتعَ للخنا، ومنتدياتٍ للزور، يسفك فيها دم الفضيلة، وترفع في سوحها ألوية الرذيلة؛ فلا غرو أن صارت وبالاً

على أهليهـا، وحسـرةً على مرتاديها؛ حيث فقدوا بركاتها، وحرموا خيراتها، فلا يجد المرء فيها أنسه، ولا من يقدر كرامته وإنسانِيَّته، بل ربما وجد الإهانة والإساءة من جلاسه.

فمـا أحرانا ـ معاشر المسلمين ـ أن تكون أحاديثنا ومجالسنا عامرة بالجد والحكمة، حافلة بما يعود علينا بالفائدة والمتعة، بعيدة عما ينافي الأدب والمروءة.

وإن مما يعين على ذلك أن تُلقى الأضواء على ما يدور في مجالسنا وأحاديثنا من أخطاء؛ كي تُتلافى، ويُسعى في علاجها.

وفيمـا يلي من صفحـات ذكـرٌ لبعض تلك الأخـطاء؛ تنبيهاً عليها، وحفزاً لمن وقع فيها أن يتخلص منها.

فعسى الله أن ينفـع بهـذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

محمد بن إبراهيم الحمد
١٤١٦/٥/٣هـ
الزلفي ١١٩٣٢ ص.ب ٤٦٠

أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة

١ ـ الثرثـرة:

الثرثرة هي كثرة الكلام بلا فائدة، والثرثار هو كثير الكلام تكلفاً.

فتجـد من الناس من هو ثرثارة مهذار، يتكلم في كل باب، ويتولج كل مضيق.

فإذا حضر مجلساً ما ملأه بكثرة الضجيج، وأشغله بفضول الكلام.

فالثرثرة مظهر من مظاهر سوء الخلق، وهي دليل على نقص العقل ورقَّةِ الدين.

قال النبي ـ عليه الصـلاة والسـلام ـ **«إن من أحبكم إليّ، وأقـربكم مني في الآخـرة أحـاسنكم أخـلاقـاً وإن أبغضكم إليّ، وأبعدكم مني في الآخرة أسوؤكم أخلاقاً؛ الثرثارون، المتفيهقون، المتشدقون»**.[١]

---

(١) أخرجه أحمد ٤/١٩٣ ـ ١٩٤، وابن حبان (٤٨٢) وابن أبي شيبة ٨/٥١٥، والبغـوي في شرح السنـة (٣٣٩٥) كلهم من حديث أبي ثعلبـة الخشني، والترمذي (٢٠١٨) عن جابر وقال: «حديث حسن غريب» وقال الهيثمي في المجمـع ٨/٢١: «رجـال أحمـد رجـال الصحيح»، وحسنـه الألبـاني في الصحيحة (٧٩١).

وقال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ : «لا خير في فضول الكلام» .(١)

وأوصى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ رجلاً فقال: «لا تتكلم بما لا يعنيك؛ فإن ذلك فضل، ولست آمن عليك من الوزر، ودع الكلام في كثير مما يعنيك حتى تجد له موضعاً؛ فربَّ متكلم في غير موضعه قد عُنِّتَ» .(٢)

وقال عطاء ـ رحمه الله ـ : «كانوا يكرهون فضول الكلام» .(٣)

وقال: «بترك الفضول تكمل العقول» .(٤)

وقال: «الصمت صيانة اللسان، وستر العِيِّ» .(٥)

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ :

لا خير في حشو الكلا ... مِ إذا اهتديت إلى عيونه
والصمتُ أجملُ بالفتى ... من منطقٍ في غير حينه(٦)

وقال إسماعيل الكاتب:

خيرُ الكلام قليلٌ ... على كثيرٍ دليلُ
والعِيُّ معنىً قصيرٌ ... يحويه لفظٌ طويل(٧)

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ : «اعلم أنه ينبغي لكل مكلف

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبدالبر ١/٦١.
(٢) العزلة للخطابي، ص ١٣٤.
(٣) (٤) (٥) بهجة المجالس. ١/٦١.
(٦) ديوان الشافعي ص ١٣٦ بتحقيق د. محمد عبدالمنعم خفاجي.
(٧) بهجة المجالس ١/٦١.

أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلامُ المباحُ وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك عنه؛ لأنه قد يجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، وذلك كثير في العادة، والسلامة لا يَعْدِلُها شيء» . (١)

وقال القاسمي : «إياك وفضولَ الكلام ؛ فإنه يُظهر من عيوبك ما بطن، ويُحرِّك من عدوك ما سكن؛ فكلام الإنسان بيان فضله، وترجمان عقله؛ فاقْصُرْه على الجميل، واقتصر منه على القليل» . (٢)

ولئن كان لزومُ الصمت، وتركُ الحديث فيما لا يعني مستحسناً مطلوباً من كل أحد ـ فلهو ممن يأنس من نفسه الجهل، وكثرة الزلل والخطأ أولى وأولى .

قال علي بن عبدالرحمن بن هذيل: «ومن الواجب على من عري من الأدب، وتخلى عن المعرفة والفهم، ولم يتحلَّ بالعلم ـ أن يلزم الصمت، ويأخذ نفسه به؛ فإن ذلك حظ كبير من الأدب، ونصيب وافر من التوفيق؛ لأنه يأمن من الغلط، ويعتصم من دواعي السقط؛ فالأدب رأس كل حكمة، والصمت جماع الحكم. (٣)

قال الشاعر:

وفي الصمت سترٌ للعيي وإنما صحيفةُ لبِّ المرءِ أن يتكلما (٤)

---

(١) رياض الصالحين للنووي ص ٣٩١ .
(٢) جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب للقاسمي ص٦ .
(٣) (٤) عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة لعلي بن عبدالرحمن بن هذيل ص ١٢٨ .

٢ ـ الاستئثار بالحديث:

فهناك من يثرثر في حديثه، ولكنه يعطي غيره فرصة كي يتحدث.

والثرثرة قبيحة ـ كما مر ـ وأقبح منها أن يستأثر المرء بالحديث، فلا يعطي غيره فرصة لأن ينبس ببنت شفة.

والأثرة بالحديث آفة قبيحة، يغفل عنها كثير من المتحدثين؛ لظنهم أن سكوت مَنْ أمامهم إنما هو إعجابٌ بكلامهم، وموافقةٌ لهم على الإطالة.

فيحسن بالمتحدث تجنب الاستئثار بالحديث، وألا يعيب على غيره ذلك ويبيحه لنفسه.(١)

فمن الأدب في الكلام أن يقتصد المسلم في تحدثه في المجالس، وأن ينأى بنفسه من صنيع بعض الناس، ممن لا يستحيون من امتلاك ناصية الحديث في محافل الناس، فيملأون الأفئدة بالضجر من طول ما يتحدثون.(٢)

قال الشيخ ـ عبدالرحمن بن سعدي ـ رحمه الله ـ: «وإياك أن تتصدى في مجالسك مع الناس للترؤس عليهم وأنت لست برئيس، وأن تكون ثرثاراً متصدراً بكل كلام.

وربما من جهلك وحمقك ملكت المجلس على الجلوس، وصرت أنت الخطيبَ والمتكلمَ دون غيرك.

---

(١) انظر كيف تحاور د. طارق الحبيب ص ١٥.

(٢) انظر خلق المسلم للغزالي ص ١٦٠.

وإنما الآداب الشرعية والعرفية مطارحة الأحاديث، وكلٌّ من الحاضرين يكون له نصيب من ذلك، اللهم إلا الصغار مع الكبار، فعليهم لزوم الأدب، وألا يتكلموا إلا جواباً لغيرهم» .(١)

٣ ـ الحديث عن النفس على سبيل المفاخرة:

فبعض الناس لا يفتأ يتحدث عن نفسه، فيذكر محاسن نفسه، ويمتدح أعماله، ويفتخر بما يصدر منه من أفضال وأيادٍ.

ويدخل في ذلك تحدثه عن إعجابه بكلامه، وتصنيفه، وشعره، وسائر ما يخصه.

ويدخل في ذلك ـ أيضاً ـ حديثه عن ذكاء أولاده، وذكر أخبارهم، والحديث عن زوجته، وحسن تدبيرها، ونحو ذلك.

والأصل في مدح الإنسانِ نَفْسَهُ المنعُ؛ لقوله ـ عز وجل ـ: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ [النجم: ٣٢].

وتزكية النفس داخلة في باب الافتخار غالباً.

فإن وجد ما يقتضي الحديث عن النفس وتزكيتها ـ إما للتعريف بنفسه، وإما لتوضيح الأمور المبهمة، وإما لدفع تهمة، وإما لغير ذلك من الأمور المشروعة ـ فإن تلك التزكية جائزة، ومدح النفس والحديث عنها حينئذٍ لا غبار عليه .(٢)

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: «واعلم أن ذكر محاسن نفسه ضربان: مذموم ومحبوب.

---

(١) الرياض الناضرة ضمن المجموعة الكاملة لابن سعدي، الخامسة ص ٥٤٩ .

(٢) انظر السلوك الاجتماعي في الإسلام لحسن أيوب ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩ .

فالمـذموم أن يذكر للافتخار، وإظهار الارتفاع، والتميز على الأقران، وشبه ذلك.

والمحبوب أن يكون فيه مصلحة دينية، وذلك بأن يكون آمراً بمعـروف، أو ناهياً عن منكـر، أو ناصحاً بمصلحة، أو معلماً، أو مؤدباً، أو واعظاً، أو مذكراً، أو مصلحاً بين اثنين، أو يدفع عن نفسه شراً، أو نحو ذلك، فيذكر محاسنه ناوياً بذلك أن يكون هذا أقرب إلى قبول قوله، واعتماد ما يذكره.

وقد جاء لهذا المعنى مالا يحصى من النصوص». (١)

ثم ساق ـ رحمه الله ـ أمثلة على ذلك. (٢)

قال ابن المقفع: «وإن أَنِسْتَ من نفسك فضلاً ـ فَتَحَرَّج من أن تذكـره، أو تبديه، واعلم أن ظهوره منك بذلك الوجه يقرر لك في قلوب الناس من العيب أكثر مما يقرر لك من الفضل.

واعلم أنـك إن صبـرت، ولم تعجـل ظهـر ذلـك منك بالوجه الجميل المعروف عند الناس.

ولا يَخْفَيَنَّ عليك أن حرصَ الرجلِ على إظهار ما عنده، وقلَّةَ وقاره في ذلك ـ باب من أبواب البخل واللؤم، وأن خيرَ الأعوان على ذلك السخاءُ والتكرم.

وإن أردت أن تلبس ثوب الوقار والجمال، وتتحلى بحلية المودة

---

(١) الأذكار للنووي ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٢) انظر الأذكار ص ٢٤٧.

عند العامة، وتسلك الجدد[١] الذي لا خبار[٢] فيه ولا عثار - فكن عالماً كجاهل، وناطقاً كعيي.

فأما العلم فيزينك ويرشدك، وأما قلة ادعائه فتنفي عنك الحسد، وأما المنطق إذا احتجت إليه فيبلغك حاجتك، وأما الصمت فيكسبك المحبة والوقار» . [٣]

٤ - الغفلة عن مغبة الكلام:

فهناك من يطلق لسانه بالكلام دونما نظر أو مبالاة في آثاره، أو أبعاده.

فتجده يطلق القول على عواهنه غير عابىء بما يجره عليه من بلاء أو شقاء؛ فلربما كان سبباً في مقتله، ولربما كان سبباً في إذكاء عداوة، أو إشعال حرب، أو نحو ذلك.

قال أكثم بن صيفي: «مقتل الرجل بين فكيه» [٤] يعني لسانه.

وقال المهلب لبنيه: «اتقوا زلة اللسان؛ فإني وجدتُ الرَّجُلَ تعثر قَدَمُهُ فيقوم من عثرته، ويَزِلُّ لسانُه فيكون فيه هلاكُه». [٥]

وقال الشاعر:

يصابُ الفتى من عثرةٍ بلسانه   وليس يصابُ المرءُ من عثرة الرِّجْلِ

---

(١) الجدد: الأرض المستوية.

(٢) لا خبار: الخبار ما استرخى من الأرض.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع ص ١٣٥ شرح ودراسة د. مفيد قميحة.

(٤) (٥) المحاسن والمساوىء لإبراهيم البيهقي ص ٤٢٧.

وعثـــرتُـــهُ مِنْ فيه ترمي برأسـه وعثرته في الرِّجل تبرا على مهل [١]

والعرب تقول في أمثالها: «إياك وأن يضرب لسانُك عُنُقَك».

أي إياك أن تلفظ بما فيه هلاكُك.[٢]

وقال علي - رضي الله عنه -: «اللسان معيارٌ أطاشة الجهلُ، وأرجحه العقل».[٣]

وقال بعض البلغاء: «الزم الصمت؛ فإنه يُكْسِبك صفوَ المودة، وَيُؤَمِّنُــكَ سوءَ المَغَبَّـــةِ، ويُلْبِسُــكَ ثوبَ الـوقـارِ، ويكفيك مؤونـة الاعتذار».[٤]

وقال بعضهم: «اعْقِلْ لسانَك إلا عن حق توضحه، أو باطل تدحضه، أو نعمة تذكرها».[٥]

قال طرفة بن العبد:

وإنَّ لســـانَ المـرءِ ما لم تكنْ له حصـاةٌ[٦] على عوراته لدليلُ[٧]

يقـول إذا لم يكن مع اللسان عقل يحجزه عن بسطه فيما لا يُحبُّ - دل اللسان على عيبه بما يلفظ به من عُور الكلام.[٨]

وقال الآخر:

---

(١) المحاسن والمساوىء ص ٤٢٨.

(٢) الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام ص ٤١ ومجمع الأمثال للميداني ١/٨٠٨.

(٣) (٤) أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٢٧٥.

(٥) أدب الدنيا والدين ص ٢٧٥.

(٦) حصاة: عقل.

(٧) ديوان طرفة بن العبد ص ٨١، وانظر بهجة المجالس لابن عبدالبر ١/٨٣.

(٨) انظر لسان العرب ١٤/١٨٣.

رأيت اللسانَ على أهله إذا ساسه الجهلُ ليثاً مغيرا [١]

وقال عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ: «زَلَّةُ الرِّجْلِ عَظْمٌ يجبر، وزلة اللسان لا تبقي ولا تذر» . [٢]

بل إن الإنسان قد يتكلم بكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**إن العبدَ لَيتكلمُ بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفع الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم**» . [٣]

ولهذا يجب على العاقل أن يخزن لسانه، وأن يزن كلامه؛ حتى لا يقع فيما لا تحمد عقباه، فيندم ولات ساعة مندم.

قال ابن المقفع: «اعلم أن لسانك أداةٌ مُصْلتة، يتغالب عليه عقلك، وغضبك، وهواك؛ فكلٌّ غالبٍ عليه مُسْتَمْتِعٌ به، وصارفُه في محبته.

فإذا غلب عليه عَقْلُكَ فهو لك، وإن غلب عليه شيءٌ من أشباه ما سميت لك فهو لعدوِّك.

فإن استطعت أن تحتفظ به، وتصونه فلا يكون إلا لك، ولا

---

(١) بهجة المجالس ١/٨٣.
(٢) بهجة المجالس ١/٨٧.
(٣) أخرجه البخاري ٧/١٨٥ عن أبي هريرة.

يستولي عليه، أو يشاركك فيه عدوُّك ـ فافعل» . [١]

وقال الماوردي ـ رحمه الله ـ: «واعلم أن للكلام شروطاً لا يسلم المتكلم من الزلل إلا بها، ولا يعرى من النقص إلا بعد أن يستوفيها .

وهي أربعة شروط، فالشرط الأول: أن يكون الكلام لداعٍ يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع، أو دفع ضرر.

والشرط الثاني: أن يأتي به في موضعه، ويتوخى به إصابة فرصته .

والشرط الثالث: أن يقتصر فيه على قدر الحاجة .

والشرط الرابع: أن يتخير اللفظ الذي يتكلم به» . [٢]

ثم شرع ـ رحمه الله ـ بتفصيل ذلك بكلام جميل .

وقال الزمخشري: «خَيرُ الألسنِ المخزون، وخير الكلام الموزون؛ فَحَدِّثْ إن حَدَّثْتَ بأفضلَ مَن الصمت، وزيِّن حديثك بالوقار وحسن السمت .

إن الطيش في الكلام يترجم عن خفة الأحلام، وما دخل الرفقُ في شيء إلا زانه، وما زان المتكلمَ إلا الرَّزَانةُ» . [٣]

٥ ـ قلة المراعاة لمشاعر الآخرين:

فمن الناس من هو غليظ الطبع، كثيف النفس، صفيق الوجه،

---

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع ص ١٣٩ .

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٢٧٥ .

(٣) أقـوال مأثورة وكلمات جميلة، د. محمد بن لطفي الصباغ، ص ١٤٨ عن أطواق الذهب للزمخشري، ص ٨٩ .

لا يحجزه عن المباذل يقين، ولا تلزمه المكارم مروءة، لا يراعي مشاعر الآخرين، ولا يأنف من مواجهتهم بما يكرهون.

فإذا ما حضر مجلساً، وابتدر الكلام وضعتَ يدك على قلبك؛ خَشْيَةَ أنْ يَزِلَّ أو يفرط على أحد من الحاضرين.

فإذا ما وجد مجالاً يشبع فيه طبيعته النزقة الجهول ـ هام على وجهه، لا ينتهي له صياح، ولا تنحبس له شِرَّة.

فتارة يُذَكِّر الحاضرين بعيوبهم، وتارة يؤذيهم بلحن منطقه، وتارة يذكرهم بأمور يسوؤهم تذكرها.

«أكبَّ رجل من بني مرة على مالك بن أسماء يحدثه في يوم صيف، ويُغِمُّه، ويثقل عليه، ثم قال: أتدري مَنْ قَتَلْنَا منكم في الجاهلية؟.

قال: لا، ولكني أعرف من قتلتم منا في الإسلام.

قال: ومن هم؟.

قال: أنا قتلتني اليوم بطول حديثك، وكثرةِ فضولك». (١)

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومنهم مَنْ مخالطته حمى الروح، وهو الثقيل البغيض العقل، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها.

بل إن تكلّم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين مع

---

(١) عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة لأبي الحسين علي ابن عبدالرحمن بن هذيل ص ١٩٢.

إعجابه بكلامه وفرحه به؛ فهو يُحَدِّث من فيه كلما تحدث، ويظن أنـه مسـك يُطيِّب به المجلس، وإن سكت فأثقلُ من نصف الرّحا العظيمة، التي لا يطاق حملُها ولا جرُّها على الأرض.

ويذكر عن الشافعي ـ رحمه الله ـ أنه قال: ما جلس إليَّ ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزلَ من الجانب الآخر.

ورأيتُ يومـاً عند شيخنا[1] ـ قدس الله روحه ـ رجلاً من هذا الضـرب، والشيخ يحمله، وقد ضعفت القوى عن حمله، فالتفت إلي، وقال: مجالسة الثقيل حُمَّى الربع، ثم قال: لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى، فصارت لها عادة، أو كما قال»[2].

ولهذا فالرجل النبيل، ذو المروءة والأدب هو من يراعي مشاعر الآخرين، فلا يؤذيهم بكلمة، ولا يجرح مشاعرهم بإشارة أو نحوها، بل يحفظ عليهم كرامتهم وماء وجوههم.

خَالِقِ النـاسَ بِخُلْقٍ حَسَـنٍ　　　لا تكن كلبـاً على الناس يَهِرْ[3]

«قال بعضهم: صحبتُ الربيعَ بنَ خثيم عشرين عاماً ما سمعت منه كلمة تعاب»[4].

٦ ـ التعميم في الذم:

فتجـد من النـاس من يَغْلِبُ عليه جانبُ المبالغة في إطلاق

---

(١) يعني شيخه ابن تيمية.
(٢) بدائع الفوائد لابن القيم ٢/٢٧٤ ـ ٢٧٥.
(٣) بهجة المجالس ٢/٢٩٨.
(٤) سير أعلام النبلاء ٤/٢٥٩.

الأحكام، فتراه يعمم الحكم في ذمِّ طائفة، أو قبيلة، أو جماعة من الناس.

وهذا التعميم قد يوقعه في الحرج دون أن يشعر؛ فقد يكون مِنْ بين الحاضرين مَنْ يتناولهم ذلك الذمُّ العام؛ فلا ينتبه المتكلم إلا بعد أن تقع الفأس بالرأس.

بل ربما عَرَّض ذلك الذامُّ نَفْسَهُ للإساءة؛ فقد يسيء بصنيعه إلى شخص غضوب لا يتحمل الإساءة، فيقوده ذلك إلى الانتقام والتشفي، ورد الإساءة بمثلها أو أشد.

ولهذا كان من الأهمية بمكان أن يتفطن المرء لهذا الأمر، وأن يتحفظ من سقطات لسانه، وأن يتجنب كل ما يشعر بأدنى إساءة لأحد من الحاضرين؛ فذلك أسلم له، وأحفظ لكرامته.

قال ابن المقفع: «إذا كنت في جماعة قوم أبداً فلا تَعُمَّنَّ جيلاً من الناس، أو أمة من الأمم بشتم ولا ذم؛ فإنك لا تدري لعلك تتناول بعض أعراض جلسائك مخطئاً فلا تأمن مكافأتهم، أو متعمداً فتنسب إلى السفه.

ولا تذمن مع ذلك اسماً من أسماء الرجال أو النساء بأن تقول: إن هذا لقَبيحٌ من الأسماء؛ فإنك لا تدري لعل ذلك غير موافق لبعض جلسائك، ولعله يكون بعض أسماء الأهلين والحرم.

ولا تستصغرن من هذا شيئاً؛ فكل ذلك يجرح في القلب، وجرح اللسان أشد من جرح اليد». [١]

---

(١) الأدب الكبير والأدب الصغير ص ١٦٢.

٧ ـ كثرة الأسئلة، وتعمد الإحراج فيها:

فالسؤال بحد ذاته غير مذموم، كمن يسأل صاحِبَه وجليسَه عن صحته، وعن حاله في الجملة؛ فهذا مما يشعر بالاهتمام والمودة.

وكذلك سؤال المرء عما يعنيه من أمر دينه، فهذا مما أمرنا به، وشفاءُ العيِّ السؤال، قال ـ تعالى ـ: ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾ [الأنبياء: ٧].

أما كثرة الأسئلة، والتعنت فيها، وتعمد الإحراج للمسؤول عنها ـ فهذا مما لا ينبغي.

وذلك كحال من يسأل عما لا يعنيه، وكحال من يسأل الناس عن أمورهم الخاصة، التي لا يرتضون أن يطلع عليها أحد غيرهم.

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**ويكره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال**». (١)

ثم إن هذا السائل قد يُوْقِعُ نَفْسَهُ فيما يسوؤه، فلربما عَرَّضَ نفسه لرد موبخ مسكتٍ قال ـ تعالى ـ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم**﴾ [المائدة: ١٠١].

قال ابن عبدالبر ـ رحمه الله ـ : «قال تميم بن نصر بن سيار لأعرابي: هل أصابتك تخمة؟

قال: أما من طعامك فلا». (٢)

«وكان الفرزدق مرة ينشد، والكميتُ صبي، فأجاد الاستماع

---

(١) رواه أحمد ٢/٢٧ ومسلم (١٧١٥) عن أبي هريرة.

(٢) أدب المجالسة وحمد اللسان، لابن عبدالبر ص ١٠١.

إليه، فقال: يا بني، أيسرك أني أبوك؟

قال: أما أبي فلا أرى به بدلاً، ولكن يسرني أنك أمي، فأفحمه حتى غَصَّ بِرِيْقِهِ». (١)

قال الحكيم:

ودعِ السؤالَ عن الأمور وبحثها فلربَّ حافِرِ حفرةٍ هو يصرع(٢)

٨ ـ سرعة الجواب:

فمن العيوب التي تنافي أدب المحادثة أن يتعجل المرء الجواب، فيجيبَ دون أن ينهي السائل كلامه، أو يجيب عن سؤال لم يُوَجَّهْ إليه مباشرةً، بل طرح في مكان عام دون أن يوجه إلى أحد بعينه.

وأقبح ما في هذا أن يجيب المرء عن سؤال وُجِّهَ إلى غيره.

فهذا كله منافٍ لأدب المحادثة، ودليل على الخِفَّة والطيش، وهو من العجلة المذمومة، التي تزري بصاحبها، وتحط من شأنه، وتورثه الزلل والندم.

قال عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله: «خصلتان لا تَعْدَمَانك من الجاهل: كثرة الالتفات، وسرعة الجواب». (٣)

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني ٢/٧٨ ـ ٧٩.

(٢) عين الأدب والسياسة ص ٢٧٧.

(٣) عيون الأخبار ٢/٣٩.

وقال ابن المقفع: «وإذا لم يقصد السائل في المسألة لرجل واحد، وعمَّ بها جماعة من عنده - فلا تبادرنَّ بالجواب، ولا تسابق الجلساء، ولا تواثب[1] بالكلام مواثبةً؛ فإن ذلك يجمع مع شين التكلف والخفة أنك إذا سبقت القوم إلى الكلام صاروا لكلامك خصماء، فَتَعَقَّبُوه بالعيب والطعن.

وإذا أنت لم تَعجلْ بالجواب، وخلَّيته للقوم - اعترضْتَ[2] أقاويلهم على عينك، ثم تدَبَّرْتَهَا، وفكرت في ما عندك، ثم هيَّأت من تفكيرك ومحاسن ما سمعت جواباً رضيًّاً، ثم استدبرت به أقاويلهم حين تصيخ إليك الأسماع، ويهدأ عندك الخصوم.

وإذا لم يبلغك الكلام حتى يكتفي بغيرك، أو ينقطع الحديث قبل ذلك - فلا يكون من العيب عندك، ولا من الغبن في نفسك فوتُ ما فاتك من الجواب؛ فإن صيانة القول خيرٌ من سوء وضعه، وإن كلمةً واحدةً من الصواب تصيب موضعها خَيْرٌ من مائة كلمة تقولها في غير فرصها ومواضعها.

مع أنَّ كلامَ العجلةِ والبدارِ موكلٌ به الزلل، وسوء التقدير، وإِنْ ظَنَّ صاحبُهُ أَنْ قد أتقن وأحكم.

واعلم أنَّ هذه الأمورَ لا تدرك، ولا تملك إلا بِرُحْب الذرع[3]

(١) لا تواثب: المواثبة التسرع وترك التروي.

(٢) اعترضت أقاويلهم على عينك: أي تأملتها، وترَوَّيت في فهم أبعادها، وخلصت بذلك إلى حسن الإجابة.

(٣) رحب الذرع: سعة العلم، وسعة الأفق، وقوة التبصر.

عنـد ما قيل وما لـم يقل، وقلة الإعظام لما ظهر من المروءة وما لـم يظهـر، وسخـاوة النفس عن كثير من الصـواب مخـافـةَ الخلاف، والعجلة، والحسد، والمراء» .[١]

٩ ـ الحرص على إبداء الرأي في كل صغيرة وكبيرة:

فمن النـاس من يحـرص على إبـراز نفسـه، وإظهـار قدرته وخبـرتـه، وإشعار الآخرين بحنكته وجودة رأيه، فتراه يحرص على إبداء رأيه في كل صغيرة وكبيرة، ويتعجل ذلك فيقول به بمناسبة وبغير مناسبة، وسواء سئل عن ذلك أم لم يسأل.

كل ذلك دونما نظر في العواقب، أو مراعاة للمصلحة.

وهذا الصنيع مما يتنافى مع الحزم، ومما يعرض صاحبه للزلل والخطل؛ فلا خير في الرأي الفطير، ولا الكلام القضيب[٢]، والعرب تقول: «الخطأ زاد العجول» .[٣]

فليس من الحكمة أن يتعجل الإنسان إبداء الرأي؛ لأنه ربما جانب الصواب، وخالف الحقيقة، بل ربما قاده ذلك إلى أن يتعصب لرأيه ولو كان غير مصيب؛ كيلا يوصم بالعجلة والزلل.

بخلاف ما إذا تريث وتأنى؛ فإن ذلك أدعى لصفاء القريحة، وأحرى لأن يختمر الرأي في الذهن، وأخلق بالسلامة من الخطأ.

---

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ١٢٢ ـ ١٢٣.
(٢) الرأي الفطير: هو الذي لم ينضج، والكلام القضيب: هو المرتجل. انظر زهر الأدب ١/١٥٤.
(٣) مجمع الأمثال للميداني ١/٤٣١.

والعرب تمدح من يَتَرَيَّثُ، ويتأنى، ويُقلّب الأمور ظهراً لبطن، وتقول فيه: «إنه لَحُوَّلٌ قُلَّبٌ» .[1]

بل ليس من الحكمة أن يبدي الإنسان رأيه في كل ما يعلم حتى ولو كان متأنياً في حُكْمِه، مصيباً في رأيه؛ فما كل رأي يُجْهر به، ولا كل ما يعلم يقال.

بل الحكمة تقتضي أن يحتفظ الإنسان بآرائه لنفسه إلا إذا استدعى المقام ذلك، واقتضته الحكمة والمصلحة؛ فآراء المرء له، وأقواله عليه؛ فإذا صرح بآرائه صار أسيراً لها، مُكَبَّلاً في أغلالها، له غنمها، وعليه غرمها.

قال أحد الحكماء: «إن لابتداء الكلام فتنةً تروق، وجدَّةً تعجب؛ فإذا سكنت القريحةُ، وعدل التأملُ، وصفت النفس ـ فَلْيُعِدِ النظر، وليكن فرحُه بإحسانه مساوياً لغمه بإساءته» .[2]

وقال أحد الشعراء:

وزِنِ الكـلام إذا نطقت فإنمـا يبدي العقولَ أو العيوبَ المنطقُ[3]

وقال ابن حبان ـ رحمه الله ـ: «الرافق لا يكاد يُسبق، والعَجِلُ لا يكاد يَلْحق.

وكما أن من سكت لا يكاد يندم كذلك من نطق لا يكاد يسلم.

والعَجِل يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويحمد

---

(١) الأمثال لأبي عبيد ص ١٠٠.
(٢) زهر الآداب ١/١٥٤.
(٣) روضة العقلاء ص ٢١٦.

قبل أن يُجَرِّبُ، ويذم بعدما يحمد.

يعزم قبل أن يفكر، ويمضي قبل أن يعزم.

والعَجِل تصحبه الندامة، وتعتزله السلامة، وكانت العرب تسمي العجلة أم الندامات». [(١)]

١٠ ـ التعرض للسفلة والسفهاء:

فهناك من الناس من لا يأنف من مجاراة السفهاء، والتعرض للسفلة؛ فإذا ما جمعه بهم مجلس توسع في الحديث معهم، وتمادى في مضاحكتهم وممازحتهم.

مما يجعله عرضة لسماع ما لا يرضيه من ساقط القول وقبيحه، فيصبح بذلك مساوياً لهم في سفههم وسفالتهم؛ إذ نزل إليهم، وانحط في حضيضهم.

إذا جاريت في خلقٍ دنيئاً ... فأنت ومن تجاريه سواء [(٢)]

فليس من الحكمة ولا المروءة أن يتعرض المرء لهؤلاء، وإنما الحكمة وتمام المروءة أن يُعْرِضَ المرء عنهم، ويدَع مجاراتهم والحديث معهم إلا بقدر ما تدعو إليه الحاجة؛ من سلام أو ردِّه، أو جواب لسؤال، أو نحو ذلك.

لا تُرْجِعَنَّ إلى السفيه خطابَه ... إلا جوابَ تحيةٍ حيَّاكَها

فمتى تُحرِّكْه تُحرِّكْ جيفةً ... تزداد نتناً إن أردت حِراكَها [(٣)]

---

(١) روضة العقلاء ص ٢١٦.

(٢) ديوان أبي تمام ٤/٢٩٦ وانظر أقوال مأثورة ص ١٥.

(٣) الحلم لابن أبي الدنيا ص ٣٢.

وإذا ما أراد السفيه أن يبدأ بالسفه فما أجمل الإعراض عنه، وتجاهله؛ كي يُقصر عن غيِّه وسفهه.

أعــرض عن الجــاهــل السفيه فكــل ما قال فهــو فيه
ما ضرَّ نهرُ الــفــراتِ يومــاً لو خاض بعضُ الكلابِ فيه(١)

فمن أعـرض عن الجـاهلين، وتـرك مجـاراة السفهـاء حمى عرضه، وأراح نفسه، وسلم من سماع ما يؤذيه.

قال ـ تعـالى ـ: ﴿خـذ العفـو وأمـر بالعـرف وأعـرض عن الجاهلين﴾ [الأعراف: ١٩٩].

فبـالإعـراض عن هؤلاء يحفظ الـرجل على نفسه عزتها؛ إذ يرفعها عن الطائفة التي تَلَذُّ المهاترةَ والإقذاع.

قال ابن عبـاس ـ رضي الله عنهمـا ـ: «ولا تمـارِ حليماً ولا سفيهاً؛ فإن الحليم يقليك، والسفيه يؤذيك». (٢)

قال بعض الشعراء:

إني لأُعْرِضُ عن أشياءَ أَسْمَعُهَا حتى يقولَ رجالٌ إن بي حُمُقَا
أخشى جوابَ سفيهٍ لا خلاقَ له فَسْلٍ وظنَّ أناسٍ أنه صدقا (٣)

وقال الخطابي: «أنشدني ابن مالك، قال أنشدني الدَّغُولي في سياسة العامة:

إذا أمن الجهالُ جهلك مرةً فَعِرْضُكَ للجهال غُنمٌ من الغُنمِ

---

(١) ديوان الشافعي ص ٩٠ تحقيق الزعبي.
(٢) العزلة للخطابي ص ١٣٤ ـ ١٣٥.
(٣) عيون الأخبار ١/ ٢٨٤.

وإن أنت نازيت السفيه إذا نزا [١] فأنت سفيهٌ مثلُه غير ذي حِلْمِ
ولا تتعرض للسفيه وداره بمنزلة بين العداوة والسِّلْمِ
فيخشاك تاراتٍ ويرجوك مَرَّةً وتأخذ فيها بين ذلك بالحزم [٢]

قال ابن المقفع: «واعلم أنك ستبتلى من أقوام بسفه سيطلع منك حقداً.

فإن عارضته، أو كافأته بالسفه فكأنك رضيت ما أتى به؛ فأحببت أن تحتذي على مثاله.

فإن كان ذلك عندك مذموماً فَحَقِّقْ ذمَّك إياه بترك معارضته.

فأما أن تذمه وتمتثله [٣] فليس في ذلك سداد» . [٤]

١١ ـ الحديث بما لا يناسب المقام:

فهناك من لا يأبه بمناسبه الحديث للمقام، ولا بملائمته ومطابقته لمقتضى حال السامعين، فتراه يتكلم بالهزل في مواقف الجد، ويحاول إضحاك السامعين في مجلس يسوده الحزن.

قال ابنْ المقفع: «ولا تخلطن بالجد هزلاً، ولا بالهزل جداً؛ فإنك إن خلطت بالجد هزلاً هَجَّنْتَه، وإن خلطت بالهزل جداً كَدَّرْتَه.

غير أني قد علمت موطناً واحداً إن قدرت أن تتقبل فيه الجد بالهزل أصبت الرأي وظهرت على الأقران.

---

(١) نزا: وثب وأراد الشر.
(٢) العزلة للخطابي ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.
(٣) تمتثله: تحتذيه وتسلك طريقه.
(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ١٥٥.

وذلـك أن يتورَّدَك[١] مُتوردٌ بالسفه، والغضب، وسوء اللفظ ـ تجيبه إجابة الهازل المداعب بِرُحْب من الذرع، وطلاقةٍ من الوجه، وثبات من المنطق». [٢]

وقـال: «واتقِ الفـرح عنـد المحزون، واعلم أنه يحقد على المنطلق، [٣] ويشكرَ للمكتئب». [٤]

ومن الناس من يخاطب الأذكياء بخطاب لا يناسب إلا قاصري العقـول، وربمـا خاطب محدودي الذكاء والإدراك بكلام لا تدركه أفهامهم، وهكذا. . .

ومن هنا يفقد الكلام قيمته، ويصبح ضرباً من الهذيان، بل ربما عَرَّضَ صاحبه للمز الناس وعيبهم إياه.

وإنَّ كلامَ المرءِ في غير كنهه   لكا النبل تهوي ليس فيها نصالُها

بل ربمـا ألحق بغيره ضرراً من حيث لا يشعر؛ فقد يحادث شخصاً ذا نفس متوترة، مغرقة في التشاؤم، فيخاطبه على أنه إنسان سوي، فيزيد هذا الشخص توتراً، وبلاءً.

وقد يزور مريضاً، فَيُحَدِّثُه بما لا يناسب حاله، فيؤثر في نفس المريض، فيزيد الطين بِلَّة، والمرض علة.

ولهـذه الأسبـاب وغيرهـا عني الإسـلام عناية كبيرة بموضوع

---

(١) يتورَّدك: يحملك على أن تغتاط وتغضب؛ لتتخلى عن اتزانك.
(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ١٣٣.
(٣) المنطلق: الذي يبدو الفرح على أساريره.
(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ١٥٩.

الكلام، وأسلوب أدائه؛ ذلك أن الكلام الصادر عن إنسان ما ـ يشير إلى حقيقة عقله، وطبيعة خلقه، ولأن طرائق الحديث في جماعة ما تحكم على مستواها العام، ومدى تغلغل الفضيلة فيها.(١)

ثم إن طرائق الكلام تختلف باختلاف الأحوال والأشخاص؛ ولهذا عُرِّفت البلاغة بأنها: مطابقة الكلام لمقتضى حال السامعين.(٢)

ومن هنا كان من الأهمية بمكان أن يتعرف المرء على أحوال الناس، وأن يراعي عقولهم.

فهذا الأمر دليل على جودة النظر في سياسة الأمور، وعلى حسن التصرف في تقدير وسائل الخير، وهو مما يعين على اكتساب الأخلاق الرفيعة، وعلى استبقاء المودة في قلوب الناس.

فالرجل العاقل الحكيم الحازم يُحْكِم هذا الأمر، وينتفع به عند لقائه بالطبقات المختلفة، فتراه «يَزِنُ عقولَ مَنْ يلاقونه، ويحس ما تُكِنُّ صدورُهم، وتنزع إليه نفوسهم، فيصاحب الناس، ويشهد مجالسهم، وهو على بصيرة مما وراء ألسنتهم من عقولٍ، وسرائرَ، وعواطفَ.

فيتيسر له أن يسايرهم إلا أن ينحرفوا عن الرشد، ويتحامى ما يؤلمهم إلا أن يتألموا من صوت الحق.

ومراعاة عقول الناس، وطباعِهم، ونزعاتِهم فيما لا يُقْعِدُ حقاً،

---

(١) انظر خلق المسلم ص ٧٧.

(٢) انظر بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح لعبد المتعال الصعيدي ١/ ٢٦.

ولا يقيم باطلاً ـ مظهر من مظاهر الإنسانية المهذبة». [(١)]

قال ابن المقفع: «لا تجالس امرأً بغير طريقته؛ فإنك إذا أردت لقاء الجاهل بالعلم، والجافي بالفقه، والعيي بالبيان ـ لم تزد على أن تضيع علمك، وتؤذي جليسك بِحَمْلِكَ عليه ثِقَلَ ما لا يعرف، وغَمِّك إياه بمثل ما يغتم به الرجلُ الفصيح في مخالطة الأعجمي الذي لا يفقه عنه.

واعلم أنه ليس من علم تذكره عند غير أهله إلا عابوه، ونصبوا له، ونقضوه عليك، وحرصوا على أن يجعلوه جهلاً.

حتى إن كثيراً من اللهو واللعب الذي هو أخفُّ الأشياء على الناس ـ لَيَحْضُرُه من لا يعرفه، فيثقل عليه، ويغتم به». [(٢)]

وقال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي ـ رحمه الله ـ: «ومن الآداب الطيبة الكلامُ مع كل أحد بما يليق بحاله ومقامه؛ مع العلماء بالتعلم والاستفادة والاحترام، ومع الملوك والرؤساء بالاحترام والكلام اللطيف اللين المناسب لمقامهم، ومع الإخوان والنظراء بالكلام الطيب، ومطارحة الأحاديث الدينية والدنيوية والانبساط الباسط للقلوب، المزيل للوحشة، المزين للمجالس.

ويحسن المزاح أحياناً إذا كان صدقاً، ويحصل فيه هذه المقاصد.

ومع المستفيدين من الطلبة ونحوهم بالإفادة، ومع الصغار والسفهاء بالحكايات والمقالات اللائقة بهم مما يبسطهم ويؤنسهم،

---

(١) رسائل الإصلاح ١/٩٥.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ١٥٨.

ومع الأهل والعيال بالتعليم للمصالح الدينية والدنيوية، والتربية البيتية، وتوجيههم للأعمال التي تنفعهم مع المباسطة والمفاكهة؛ فإنهم أحق الناس بِبِرِّك، ومن أعظم البر حسن المعاشرة.

ومع الفقراء والمساكين بالتواضع، وخفض الجناح، وعدم الترفع والتكبر عليهم.

فكم حصل بهذا من خيرات وبركات، وكم حصل بضده من شر وفوات خير.

ومع من تعرف منه العداوة والبغضاء والحسد بالمجاملة، وعدم الخشونة، وإن أمكنك الوصول إلى أعلى الدرجات، وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿**ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**﴾ [فصلت: ٣٤] ـ فما أكمله من مقام لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم» .(١)

وكما أن مطابقة الكلام لعقول الناس ومقتضيات أحوالهم عائدٌ إلى الألمعية، التي هي في أصلها موهبة إلهية ـ فهو كذلك يأتي بالدربة والممارسة، وتدبر سير أعاظم الرجال، والنظر في مجاري الحوادث باعتبار، فهذا مما يقوي هذه الخصلة ويرفع من شأنها.

ولئن كان مراعاة مقتضى الأحوال حسناً مطلوباً من كل أحد ـ فَلَهْوَ من الخطيب حال الخطابة أولى وأحرى؛ فمراعاة مقتضى الحال هو لبُّ الخطابة وروحها؛ فلكل مقام مقال، ولكل جماعة من الناس لسان تُخَاطب به؛ فالأغنياء يرضي كبرياءهم نوعٌ من الكلام لا يقتضيه

---

(١) الرياض الناضرة ص ٥٤٨ ـ ٥٤٩ ضمن مجموعة ابن سعدي.

مقام الخطبة لمن ليسوا كذلك.

والعلماء يجتذبهم الثناء الحسن، وطيب الأحدوثة، والتوقير، والتعظيم، وأن يكون الكلام الذي يلقى عليهم أقربَ إلى العمق والسلامة؛ ليسترعي انتباههم.

ثم إن الجماعة الثائرة تخاطب بعبارات هادئة؛ لتكون برداً وسلاماً على القلوب.

والجماعة الخَنِسَةُ تخاطب بعبارات مثيرة للحمية، موقظة للهمة، حافزة للعزيمة.

والجماعة التي شَطَّتْ وركبت رأسها تخاطب بعبارات فيها قوةُ العزم، ونورُ الحق، وفيها إرعادة المنذر، ويقظة المنقذ، وفيها روح الرحمة، وحسن الإيثار؛ ليجتمع الترهيب مع الترغيب، ومع سيف النقمة ريحان الرحمة.

لذلك وجب على الخطيب أن يكون قادراً على إدراك حال الجماعة، وما تقتضيه تلك الحال، والإتيان بالأسلوب الذي يلائمها؛ ليصل إلى مواضع التأثير فيها.[1]

١٢ ـ الحديث عند من لا يَرْغَبُ:

فتجد من الناس مَنْ قَدْ مَرَدَ على القِحة، وسَهُل عليه الهوانُ، فتراه يبذل نفسه للناس، فيتصدر الحديث في مجالسهم، وهم عنه لاهون، وله مستثقلون، ولحديثه غيرُ راغبين.

---

(١) انظر الخطابة لأبي زهرة ص ٤٣ و ٤٥ ـ ٤٦.

ومع ذلك يستمر في جهله وغيه.

وهذا لا ينبغي ولا يحسن من ذي المروءة.

«قال مُطَرِّف: لا تطعم طعامك من لا يشتهيه».[(١)]

يريد لا تُقْبِلْ على من لا يقبل عليك بوجهه.

وقال أبو عبَّاد: «ينبغي للمحدِّث إذا أنكر من السامع أن يستفهمه عن معنى حديثه، فإن وجده قد أخلص له الاستماع أتم له الحديث، وإن كان لاهياً عنه حرمه حسن الاستقبال عليه، ونفع المؤانسة له، وعَرَفه بسوء الاستماع والتقصير في حق المحدِّث».[(٢)]

وقال: «نشاط المحدث على قدر فهم السامع».[(٣)]

وكان ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول: «حدِّثِ الناسَ ما حدَّجوك[(٤)] بأسماعهم، ولحظوك بأبصارهم، فإن رأيت منهم فتوراً فأمسك».[(٥)]

وقال البيحاني: «وإذا رأيت من جليسك الإعراض عنك، أو الاشتغال بأمر آخر ـ فلا تكلمه، ولا تكلفه الاستماع إليك».[(٦)]

وقال أحدهم:

يستوجب الصَّفْعَ في الدنيا ثمانيةٌ ... لا لومَ في واحدٍ منهم إذا صُفِعا

---

(١) عيون الأخبار ١/٣٠٧.

(٢) (٣) زهر الآداب للحصري ١/١٩٥.

(٤) حدَّجوك: وجهوها نحوك.

(٥) زهر الآداب ١/١٩٥.

(٦) إصلاح المجتمع للبيحاني ص٣٦٠.

ثم ذكر منهم:

ومتحفٌ بحـديث غير سامعـه وداخلٌ في حديث اثنين مندفعا [1]

ولا يدخل في ذلك كراهيةُ الفساق والمجرمين لحديث الداعي إلى الله، والآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، خصوصاً إذا كان لطيفاً حكيماً؛ فالعيب ليس فيه وإنما هو فيهم.

وما على العنبرِ الفوَّاحِ من حرجٍ أَنْ ماتَ من شَمِّهِ الزَّبَّالُ والجُعَلُ

١٣ ـ تكرار الحديث:

فهذا من عيوب الكلام، وهو مما يورث الملالة، ويولد السآمة.

فهناك من يذكر الحادثة أو القصة في المجلس الواحد مرات عديدة.

وهنـاك من يكرر كلامه كثيراً بلا مسوغ، مما يجعل الأذواقَ تَمُجُّهُ، والآذان تَسْتَكُّ من سماعه.

«قال محمد بن صبيح المعروف بالسماك لجاريته: كيف ترين ما أعظ الناس؟

قالت: هو حسن، إلا أنك تكرره.

قال: إنما أكرره؛ لِيَفْهَمَهُ من لم يكن فهمه.

قالت: إلى أن يفهمه البطيء يثقل على سمع الذكي». [2]

«واستُعيد [3] ابن عباس حديثاً فقال: لولا أني أخاف أن أغضَّ

---

(١) إصلاح المجتمع للبيحاني ص٣٦٠.

(٢) زهر الآداب ١/١٩٦.

(٣) استعيد: طلب منه إعادته.

من بهائه، وأريق من مائه، وأُخْلِقَ من جِدَّتِه ـ لأعَدْتُه» . [١]

وقال أبو تمام يصف قصائده:

منـزهـة عن السَّرِق المُـوَرَّى   مكـرمـة عن المعنى المعـادِ [٢]

وقال الآخر:

إذا تحدثت في قوم؛ لِتُؤْنِسَهم   من الحديث بما يمضي وما ياتي
فلا تُكَرِّرْ حديثاً إن طَبْعَهُمُ   مُوَكَّلٌ بمعاداة المعادات [٣]

أمـا إذا احتيج إلى التكرار، وكان فيه زيادة فائدة، ولم يكن موصلاً إلى حد الملال ـ فلا بأس به .

١٤ ـ التعالي على السامعين:

فمن الناس من إذا تحدث إلى أناس تعالى عليهم، وأزرى بهم .

وربمـا أشعـر ـ ولو من طرف خفي ـ بأن السامعين لا يعون كلامه، ولا يدركون مراميه .

بل ربما تَلَمَّظَ برطانة الأعاجم، وأدرجها في ثنايا حديثه بلا داع لذلك، وإنما قالها ليترفع على السامعين، وليظهر فضله عليهم! .

والتعالي على الآخرين دليل السفه، وآية نقص العقل، وإلا فالكريم العاقل يرفع من شأن الآخرين، ولا يترفع أو يتعالى عليهم .

---

(١) زهر الآداب ١/١٩٦ .

(٢) ديوان أبي تمام بشرح التبريزي ١/٣٨٢ .

(٣) إصلاح المجتمع ص ٣٦٠ .

قال ابن المقفع: «تَحَفَّظْ في مجلسك وكلامك من التطاول على الأصحـاب، وطِبْ نفساً عن كثير مما يعرض لك فيه صواب القول والرأي؛ مداراةً؛ لئلا يظن أصحابك أن دَأْبَكَ التطاولُ عليهم». [١]

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي ـ رحمه الله ـ: «واحذر غاية الحـذر من احتقـار من تجـالسـه من جميع الـطبقـات، وازدرائه، والاستهزاء به قولاً، أو فعلاً، أو إشارة أو تصريحاً، أو تعريضاً؛ فإن فيه ثلاثةَ محاذير:

أحدها: التحريم، والإثم على فاعل ذلك.

الثاني: دلالته على حمق صاحبه، وسفاهة عقله، وجهله.

الثالث: أنه باب من أبواب إثارة الشر، والضرر على نفسه». [٢]

١٥ ـ ترك الإصغاء للمتحدث:

وذلك بمقاطعته، ومنازعته الحديث، أو بالتشاغل عنه بقراءة جريدة أو كتاب، أو متابعة متحدث آخر.

ومن ذلك الإشاحة بالوجه عن المتحدث، أو إجالة النظر عنه يمنة ويسرة.

كل ذلك مما ينافي الأدب في المحادثة، ومما يدل على قلة المروءة.

---

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ١٣٤.

(٢) الرياض الناضرة ص ٤١٩.

فينبغي للمرء أن يتجافى عن هذا الخلق الذميم، وأن يحسن الأدب مع من يَتَقَصَّدُه بالحديث، ومع من يتحدث أمامه.

فمن أدب المروءة حسن إصغاء الرجل لمن يحدثه من الإخوان؛ فإن إقباله على محدثه بالإصغاء إليه يدل على ارتياحه لمجالسته، وأنسه بحديثه. (١)

بل إن المتحدث البارع هو المستمع البارع؛ فَأَحْسِنِ الاستماع، ولا تقاطع من تحادثه، بل شجعه على الحديث بحسن إنصاتك؛ كي يقابلك بالمثل.

وبراعة الاستماع تكون بالأذن، وطرف العين، وحضور القلب، وإشراقة الوجه. (٢)

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «لجليسي علي ثلاث: أن أرميه بطرفي إذا أقبل، وأن أوسع له في المجلس إذا جلس، وأن أصغي إليه إذا تحدث». (٣)

وقال عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ: «ثلاثة لا أَمَلُّهم: جليسي ما فهم عني، وثوبي ما سترني، ودابَّتي ما حملت رجلي». (٤)

وقال سعيد بن العاص: «لجليسي عليَّ ثلاث: إذا أقبل وسَّعْتُ له، وإذا جلس أقبلت إليه، وإذا حَدَّثَ سمعتُ منه». (٥)

---

(١) انظر رسائل الإصلاح ١/٢١٢.
(٢) انظر كيف تحاور د. طارق الحبيب ص ٢١.
(٣) عيون الأخبار ١/٣٠٦.
(٤) عيون الأخبار ١/٣٠٧.
(٥) المنتقى من مكارم الأخلاق للخرائطي، انتقاء أبي الطاهر السلفي ص٥٤.

وقال الحسن: «إذا جالست فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتَعَلَّمْ حسن الاستماع كما تَعَلَّمُ حسن القول، ولا تقطع على أحد حديثه». [١]

وقال أبو عباد: «للمحدِّث على جليسه السامع لحديثه أن يجمع له باله، ويصغي إلى حديثه، ويكتم عليه سره، ويبسط له عذره». [٢]

«وذكر رجل عبدالملك بن مروان فقال: إنه آخذ بأربع، تارك لأربع: آخذ بأحسن الحديث إذا حَدَّث، وبأحسن الاستماع إذا حُدِّث، وبأحسن البشر إذا لُقي، وبأيسر المؤونة إذا خولف.

وكان تاركاً لمحادثة اللئيم، ومنازعة اللجوج، ومماراة السفيه، ومصاحبة المأبون». [٣] [٤]

«وذكر الشعبيُّ قوماً، فقال: ما رأيت مثلهم أشدَّ تناوباً في مجلس، ولا أحسن فهماً من محدث». [٥]

١٦ ـ الاستخفاف بحديث المتحدث:

فمن الناس من إذا سمع متحدثاً يتحدث في مجلس، وبدر من ذلك المتحدث خطأ يسير أو نحو ذلك ـ سفَّهه، وبكَّته، واستخف بحديثه.

---

(١) المنتقى من مكارم الأخلاق ص ١٥٥.
(٢) زهر الآداب ١/١٩٥.
(٣) المأبون: المُتَّهَم بالسوء والذي يرمى بالقبيح.
(٤) عيون الأخبار ١/٣٠٧.
(٥) عيون الأخبار ١/٣٠٨.

ومن هذا القبيل ما يوجد عند بعض الناس، فما أن يتكلم أحد في مجلس إلا وتبدأ بينهم النظرات المريبة، التي تحمل استخفافاً وسخرية بالمتحدث.

وهذا الصنيع لا يحسن أبداً، وليس من صفات عظماء الرجال وأكابرهم؛ فهم يُجلّون من يُحدِّثهم، ولا يرضون بإهانته في حضرتهم طالما أنه لم يَحِدْ عن الرشد، حتى ولو أخطأ؛ فإنهم يتغاضون عن خطئه، ويتعامون عن زَلَّتِه، وإذا ما كان الخطأ كبيراً فإنهم يبينون الخطأ، ويرشدون إلى الصواب بأجمل عبارة، وألطف إشارة.

قال ابن حبان ـ رحمه الله ـ: «أنبأنا أبو يعلى حدثنا عبدالله ابن حمد بن أسماء، حدثنا مهدي بن ميمون، حدثنا معاذ بن سعد الأعور قال: كنت جالساً عند عطاء ابن أبي رباح، فحدث رجل بحديث، فعرَّض رجل من القوم في حديثه.

قال: فغضب، وقال: ما هذه الطباع؟ إني لأسمع الحديث من الرجل، وأنا أعلم به، فأريه كأني لا أحسن شيئاً». [1]

١٧ ـ المبادرة إلى إكمال الحديث عن المتحدث:

فهناك من إذا تحدث أحد أمامه بحديث، أو قصة، أو خبر، وكان يعلم ذلك من قبل ـ بادر إلى إكمال ذلك عن المتحدث، إما بقصد الإساءة إليه، وإما بإشعاره وإشعار السامعين بأن حديثه معاد مكرور، وإما ليبين أنه يعلم ذلك من قبل.

---

(١) روضة العقلاء ص ٧٢، وانظر صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/١٤٤.

وهـذا ليس من صفـات ذي المروءة؛ إذ المروءة تقتضي أن تنصت للمتحدث ولو كنت تعلم حديثه من قبل.

قال المدائني: «أوصى خالد بن يحيـى ابنه فقال: يا بني، إذا حدَّثك جليسك حديثاً فأقبل عليه، وأصغِ إليه، ولا تقل قد سمعته ـ وإن كنت أحفظ له ـ وكأنك لم تسمعه إلا منه؛ فإن ذلك يكسبك المحبة والميل إليك». (١)

وقال ابن سعدي: «ومن الآداب الطيبة إذا حدَّثك المحدِّث بأمر ديني أو دنيوي ألا تنازعه الحديث إذا كنت تعرفه، بل تصغي إليه إصغاء من لا يعرفه، ولم يَمُرَّ عليه، وتريه أنك استفدت منه، كما كان أَلِبَّاءُ الرجال يفعلونه.

وفيه من الفـوائـد تنشيط المحَـدِّث، وإدخال السرور عليه، وسلامتك من العجب بنفسك، وسلامتك من سوء الأدب؛ فإن منازعة المحدث في حديثه من سوء الأدب». (٢)

وإلى هذا المعنى الجميل يشير أبو تمام بقوله:

من لي بإنسـانٍ إذا أغـضبتُـه وجـهلت كان الحلمُ ردَّ جوابِـه
وتـراه يصغي للحـديث بسمعه وبـقـلبـه ولـعـله أدرى به(٣)

قال ابن المقفع: «وإذا رأيت رجلاً يحدِّث حديثاً قد علمته، أو

---

(١) بهجـة المجـالس ١/٤٣، وانـظر تذكـرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم لابن جماعة ص ١٥٦ـ١٥٧.
(٢) الرياض الناضرة ص ٥٤٨.
(٣) أقوال مأثورة ص ٢٨٥ عن طرائق الحكمة ١/٧٣.

يخبر خبراً قد سمعته ـ فلا تشاركْه فيه، ولا تَتَعَقَّبْهُ عليه؛ حرصاً على أن يعلم الناس أنك قد علمته؛ فإن في ذلك خِفَّةً، وسوءَ أدب، وسخفاً». [١]

وقال: «ومن الأخلاق التي أنت جدير بتركها ـ إذا حَدَّث الرجل حديثاً تعرفه ألا تسابقه إليه، وتفتحه عليه، وتشاركه فيه؛ حتى كأنك تظهر للناس أنك تريد أن يعلموا أنك تعلم مثل الذي يعلم.

وما عليك إلا أن تُهنئه بذلك، وتفرده به.

وهذا الباب من أبواب البخل، وأبوابه الغامضة كثيرة». [٢]

قال ابن عبدالبر ـ رحمه الله ـ: «ومن سوء الأدب في المجالسة أن تقطع على جليسك حديثه، أو أن تبتدره إلى تمام ما ابتدأ به منه خبراً كان أو شعراً تتم له البيت الذي بدأ به؛ تريه أنك أحفظ له منه، فهـذا غاية في سوء المجـالسة، بل يجب أن تصغي إليه كأنك لم تسمعه قط إلا منه». [٣]

وقـال ابن جريج عن عطاء: «إن الـرجل ليحدِّثني بالحديث فأنصت له كأني لم أسمعه وقد سمعته قبل أن يولد». [٤]

١٨ ـ القيام عن المتحدّث قبل أن يكمل حديثه:

فهـذا من قلة الأدب، ومما ينافي إكرام الجليس، فلا يسوغ

---

(١) الأدب الكبير والأدب الصغير ص ١٣٦.

(٢) الأدب الكبير والأدب الصغير ص ١٦٢.

(٣) بهجة المجالس ١/٤٦.

(٤) سير أعلام النبلاء ٥/٨٦، وتذكرة السامع والمتكلم ص ١٥٧.

للمرء أن يقوم عن المتحدث قبل أن يكمل حديثه؛ لما في ذلك من استجلاب الضغينة، واحتقار المتحدِّث إلا إذا احتاج السامع للقيام، واستأذن من محدِّثه ـ فهنا ينتفي المحذور.

قال أبو مجلز: «إذا جلس إليك رجل يَتَعَمَّدُك فلا تقم حتى تستأذنه» .[1]

وقال أسماء بن خارجة: «ما جلس إليَّ رجل إلا رأيت له الفضل عليَّ حتى يقوم عني» .[2]

١٩ ـ المبادرة إلى تكذيب المتحدّث:

فمن الناس من إذا طرق سمعه كلامٌ غريب من متحدِّث ما ـ بادر إلى تكذيبه، وتفنيد قوله، إما تصريحاً، أو تلميحاً، أو إشارة باليد أو العين، أو أن يهمز من بجانبه؛ ليشعره بأن المتحدِّث كاذب.

فهذا العمل من العجلة المذمومة، ومن إساءة الظن بمن يتحدَّث، وهو مما ينفي كمال الأدب والمروءة.

فينبغي لمن استمع حديثاً من أحد ألا يبادر إلى تكذيبه، بل عليه أن يُنصت له، وإن رأى في هذا في الحديث وجهَ غرابةٍ فلا يستعجل الحكمَ عليه بالكذب، بل يستفصل من المتحدِّث؛ لعله يُبين له وجهته وأدلته.

ثم إن تأكد من كذبه فلينصح له على انفراد؛ لئلا يعاود الكذب مرة أخرى.

---

(١) (٢) المنتقى من مكارم الأخلاق ص ١٥٣.

فإن عاد إليه، واقتضت المصلحة أن يُبيَّن كذبه ـ فلا بأس حينئذ من ذلك؛ حتى يرتدع من تلك الخصلة الذميمة.

قال عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ: «ثلاثة من قريش أحسنها أخلاقاً، وأصبحها وجوهاً، وأشدها حياءً، إن حدَّثوك لم يَكْذِبوك، وإن حدَّثتهم بحق أو باطل لم يُكذِّبوك: أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة ابن الجراح». (١)

٢٠ ـ التقصير في محادثة الصغار:

فلمحادثة المربي صغارَه فائدةٌ عظمى، وللحوار الهادىء معهم أهمية كبرى، ولتعليمهم آداب الحديث وطرائقه وأساليبه ثمرات جُلَّى؛ فبذلك ينمو عقل الصغير، وتتوسع مداركه، ويزداد رغبةً في الكشف عن حقائق الأمور، ومجريات الأحداث.

كما أن ذلك يكسبه الثقة في نفسه، ويورثه الجرأة والشجاعة الأدبية، ويشعره بالسعادة والطمأنينة، والقوة والاعتبار.

مما يعده للبناء والعطاء، ويؤهله لأن يعيش كريماً شجاعاً، صريحاً في حديثه، جريئاً في طرح آرائه.

ومع أهمية هذا الأمر وعظم فائدته إلا أن هناك تقصيراً كبيراً فيه؛ فكثير من الناس لا يأبه بمحادثة صغاره ولا يلقي بالاً لتعليمهم آداب الحديث وأساليبه؛ فتراه لا يصغي إليهم إذا تحدثوا، ولا يجيب عن أسئلتهم إذا هم سألوا، بل ربما كذَّبهم إذا أخبروا، ونهرهم وأسكتهم إذا تكلموا.

---

(١) عيون الأخبار ٣/٢٣.

وهذا من الخلل الفادح، والتقصير الكبير؛ فهذا الصنيع مما يولِّد الخوفَ في نفس الصغير، كما يورثه التردد، والذلة، والمهانة، والخجل الشديد، وفقدان الثقة بالنفس.

بل قد يجر له أضراراً تؤثر في مستقبله ومسيرة حياته؛ فقد يعجز عن الكلام، وقد يصاب بعيوب النطق من فأفأة، وتمتمة، ونحوها.

وقد يصاب بمرض، وقد يعاني من مشكلات فيزداد مرضه، وتتضاعف مشكلاته؛ بسبب عجزه عن الإخبار عما أصابه وألمَّ به.

وقد يُظلَم أو تُوجه له تهمة، فيؤخذ بها مع أنه بريء منها؛ لعجزه عن الدفاع عن نفسه، وعن نفي ما علق وألصق به.

وقد تضطره الحال لأن يتكلم أمام زملائه، فيرى أن الألفاظ لا تسعفه؛ فيشعر بالنقص خصوصاً إذا وُجد من يسخر منه.

ولهذا كان حريَّاً بالمربين ـ من والدين ومعلمين وغيرهم ـ أن يعنوا بهذا الجانب، وأن يرعوه حق رعايته.

فيحسن بهم إذا خاطبهم الصغار أن يُقبلوا عليهم، وأن يصغوا إلى حديثهم، وأن يجيبوا عن أسئلتهم، وأن ينأوا عن كل ما يشعر باحتقار الصغار وازدرائهم.

كما يحسن أن يُشعر الصغير بأهمية حديثه، وأن يظهر له الإعجاب وحسن المتابعة، وذلك بإصدار بعض الأصوات أوالحركات التي تنم عن ذلك، كأن يقول الكبير وهو يستمع لصغيره: حسن، جميل، رائع، نعم.

أو أن يقوم بالهمهمة، أو تحريك الرأس تصعيداً وتصويباً.

بل تحسن المبادرة في هذا الأمر، كأن يعمد الكبير لاستثارة صغيره كي يتكلم، كأن يسأله بعض الأسئلة اليسيرة التي يعرفها الصغير، فيقول ـ على سبيل المثال ـ: منْ ربُّكَ؟ وما دينك؟ ومن نبيُّك؟ أو أن يسأله عن بعض الأمور التي يراها أو يعلمها من خلال حياته اليومية.

كذلك يجمل في هذا الشأن استشارة الصغير في بعض الأمور اليسيرة؛ من باب شحذ قريحته، واستخراج ما لديه من أفكار، وإعانته على التعبير عنها.

كأن يسأله عن رأيه في أثاث المنزل، أو لون السيارة، أو عن زمان الرحلة، أو مكانها، ونحو ذلك.

ثم يوازن بين رأي الصغير وآراء إخوانه أو زملائه، ثم يطلب من كل واحد أن يبدي مسوغاته، وأسباب اختياره لهذا الرأي أو ذاك.

فكم في مثل هذه الأمور اليسيرة من الأثر العظيم والثمرات الجليلة.

إن تدريب الصغير على أدب المحادثة، وتعويده على الحوار الهادىء والمناقشة الحرة ـ يقفز بالمربين إلى قمة التربية والبناء؛ فبسبب ذلك ينطلق الطفل، ويستطيع التعبير عن آرائه، والمطالبة بحقوقه، فينشأ حراً كريماً أبيّاً، فيكون في المستقبل ذا حضور مميز، ويكون لآرائه صدىً في النفوس؛ لأنه تربى منذ الصغر على آداب الحديث وطرائقه.

ثم إن هذا مما يشعر الصغار بقيمتهم، ومما يستثيرهم لتحريك

أذهانهم، وشحذ قرائحهم، وتنمية مواهبهم.

كما أن فيه تدريباً لهم على حسن الاستماع، والقدرة على ترتيب الأفكار، وحسن الاسترجاع لما مضى، وفهم ما يلقى عليهم من الآخرين.

كما أن فيه تنميةً لشخصية الصغير، وتقويةً لذاكرته.

كما أن ذلك يزيده قرباً ومحبة لوالديه ومربيه.

هذا وقد وُجِد أن الأطفال الأذكياء يتكلمون أسرع من الأطفال الأقل ذكاءً، ووجد أن الأطفال المحرومين عاطفياً، والذين لا يكلمهم آباؤهم وأمهاتهم إلا نادراً ـ أنهم يكونون أقلَّ قدرةً على الكلام من الذين يلاطفهم والدوهم.

وليس المقصود مما مضى أن يُسرفَ في إعطاء الحرية المطلقة للصغير، فيلقى له الحبل على الغارب، ويفتح الباب على مصراعيه، فيسمح له بالصفاقة والوقاحة، ويُرضى عن تطاوله وإساءته، ويُضحك له إذا صدر منه عباراتٌ نابية أو كلمات ساقطة؛ زعماً أن ذلك من باب إعطائه الفرصة وتدريبه على الكلام!.

لا، ليس الأمر كذلك؛ فالرضا عن سفاهته وتطاوله يغريه بقلة الأدب، والضحكُ له حال صدور الكلمات القبيحة منه يعد حافزاً له بتكرارها.

فالمقصود أن يؤخذ بيده إلى الآداب المرعية، وأن يدرب على الكلام في حدود الأدب واللياقة بعيداً عن الإسفاف والصفاقة.(١)

(١) انظر تربية الأطفال في رحاب الإسلام لمحمد الناصر وخولة درويش=

٢١ ـ الوقيعة في الناس:

فهناك من إذا جلس مجلساً وقع في الناس، ورتع في أعراضهم، وأطلق لسانه في ذمهم وعيبهم، غيبة، ونميمة، وافتراءً، وبهتاناً.

فالغيبة هي كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ذكرك أخاك بما يكره**». [(١)]

والنميمة هي نقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد.

وهما لا يصدران إلا من نفس مهينة، دنيئة، وضيعة؛ فكم فسد بسببهما من صداقة، وكم تَقَطَّعَتْ من أواصر، وكم تحاصَّت من أرحام.

وإن مما يزيد الطين بلة أن تجد الغيبة والنميمة آذاناً مصيخة، وأفئدة مصغية.

فمن أصاخ السمع، وأصغى الفؤاد لمن ينم أو يغتاب ـ فهو مشارك له في الإثم.

ومن أطاع الوشاة وصدقهم فيما يقولون ـ فلن يبقى له صديق ولو كان أقرب قريب.

ومن يطع الواشين لا يتركوا له صديقاً ولو كان الحبيب المقربا[(٢)]

= ص ٣٢٣ـ٣٢٥، ومشكلات تربوية في حياة طفلك لمحمد رشيد العويد ص ٣٧ ـ ٤١.

(١) رواه مسلم (٢٥٨٩) عن أبي هريرة.

(٢) ديوان الأعشى ص ٩.

وهناك مِن يطلق لسانه في أعراض الناس يلتقط معايبهم، أو يختلق لهم معايب من تلقاء نفسه، متخيلاً أنه يحظى باسم المروءة من إلصاق العيب بغيره.

والعرب تقول: «فلان يتمرأ بنا» أي يطلب المروءة بنقصنا وعيبنا.

أما صاحب المروءة الصادقة فيبخل بوقته عن هذه الطوية الحقيرة، ولا يرضى إلا أن يشغله بما تتقاضاه المروءة من حقوق.[1]

وأجـرأ من رأيت بظهـر غيب ... على عيب الرجال ذوو العيوب[2]

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ:

المـرء إن كان عاقـلاً ورعـاً ... أشـغله عن عيوب غيره وَرَعُـهْ
كما الـعـليل الـسـقيم أشغله ... عن وجع الناس كلِّهم وَجَعُه[3]

«وربمـا اضـطر صاحب المـروءة أن يدافـع شر خصـومـه الكـاشحين بذكر شيء من سقطاتهم، ولكن المروءة تأبى عليه أن يختلق لهم عيباً يقذفهم به، وهم منه براء؛ فإن الإخبار بغير الواقع يُقَوِّضُ صرح المروءة، ولا يبقي لها عيناً ولا أثراً».[4]

٢٢ ـ التسرع في نشر الأخبار قبل التثبت منها ومن جدوى نشرها:

فمن الناس من إذا سمع خبراً طار به كل مطار، وسعى في نشره

(١) انظر رسائل الإصلاح ٢/ ٢١١.
(٢) عيون الأخبار ٢/ ١٤.
(٣) ديوان الشافعي، ص ٥٦ تحقيق الزعبي.
(٤) رسائل الإصلاح ١/ ٢١١ ـ ٢١٢.

وبثّه بين الناس، قبل أن يتثبت من صحته ومن جدوى نشره.

وهذا من الأخطاء الكبيرة التي يحصل بسببها الاختلاف والافتراق.

فالعاقل اللبيب لا يتكلم إلا إذا تثبت من صحة الكلام، فإذا ثبت لديه صحة الكلام نظر في جدوى نشره؛ فإن كان في نشره حفز للخير واجتماع وألفة ـ نشره وأظهره، وإن كان الأمر بخلاف ذلك كتم الخبر وستره.

ولقد ورد النهي عن أن يحدث المرء بكل ما سمع.

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع**».(١)

٢٣ ـ الكـذب:

فما أكثر الكذب في مجالس الناس ومنتدياتهم، وما أقل الصدق بينهم في معاملاتهم وعلاقاتهم.

فمن الناس من قد ألف الكذب، ومرد عليه، فلا يخجل من نسج الأباطيل، ولا يأنف من اختلاق الأقاويل، لا تردعه تقوى، ولا يزمُّه دين أو مروءة.

فإذا حضر مجلساً أطلق لسانه بالكذب، فتراه يأتي بالغرائب، ويغرب في العجائب، ويسوق مالا يخطر على بال، ولا يدور حول ما يشبهه خيال؛ كل ذلك لأجل أن يُسْتَظْرَفَ ظلُّه، ويُسْتَطْرَفَ حديثُه، ويُرْغَبَ في مجلسه.

---

(١) رواه مسلم (٥) عن أبي هريرة.

بل ربما ادَّعى الفضل، وتشدق بكثرة الأعمال، والبر والإحسان إلى الناس مع أنه عاطل من ذلك كله، فلا فضل لديه، ولا خير يصدر منه، وإنما قال ذلك ادعاءً وتظاهراً، ومجاراةً لأهل الفضل.

وغير خافٍ أن الكذب عمل مرذول، وصفة ذميمة؛ فهو خصلة من خصال النفاق، وشعبة من شعب الكفر، وهو سبب لنزع الثقة من الكاذب، والنظر إليه بعين الخيانة، وهو سبب لدخول النار، وحرمان الجنة.

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**وإياكم والكذبَ؛ فإن الكذبَ يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**» .[1]

ثم إنه دليل على ضعة النفس، وحقارة الشأن، وسقوط الهمة.

قيل في ذم الكذب:

وما شيء إذا فكرت فيه بأذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذي لا خير فيه وأبعد بالبهاء من الرجال[2]

وقيل في ذم الكذوب: «ليس لكذوب مروءة، ولا لضجور رياسة» .[3]

---

(١) رواه البخاري ٧/ ٩٥ ومسلم (٢٦٠٧) عن ابن مسعود.
(٢) أدب الدنيا والدين ص ٢٦١ .
(٣) المحاسن والمساوىء ص ٤٤٣ .

٢٤ ـ سماع كلام الناس بعضهم ببعض وقبول ذلك دون تمحيص أو تثبت:

فكما أن هناك من يكذب ويتعمد الكذب، وهناك من يتسرع في نشر الأخبار قبل التثبت منها ومن جدوى نشرها ـ فهناك من يخطىء فيقبل ما ينقل إليه على عِلاَّتِه، دونما تمحيص أو تثبت، ثم يبني على ذلك مواقف عملية، فيصدر لأجله أحكاماً، ويعقد عليه ولاءً وبراءً.

مع أنه لو مَحَّصَ الخبر، وكشف جَلِيَّة الأمر ـ لربما استبان له أن الصواب مجانب لما بلغه، أو أن الأمر زِيْدَ فيه ونُقِص، وغُيِّر عن وجهته.

فكم جر ذلك الأمر من ويلات، وكم أفسد من مودات، وكم أغرى من عداوات.

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي ـ رحمه الله ـ: «من الغلط الفاحش الخطر قبول قول الناس بعضهم ببعض، ثم يبني عليه السامع حباً وبغضاً، ومدحاً وذماً.

فكم حصل بهذا الغلط من أمور صار عاقبتها الندامة، وكم أشاع الناس عن الناس أموراً لا حقائق لها بالكلية، أَوْلَها بعض الحقيقة فنُمِّيَت بالكذب والزور، وخصوصًا ممن عُرفوا بعدم المبالاة بالنقل، أو عُرف منهم الهوى.

فالواجب على العاقلِ التثبتُ والتحرز، وبهذا يعرف دين المرء ورزانته وعقله». (١)

---

(١) الرياض الناضرة ص ٢٠٩.

٢٥ ـ رفـع الصـوت:

فهناك من إذا أراد التحدث مع غيره بالغ في رفع صوته من غير حاجة أو داع إلى ذلك.

وهذا مما ينافي أدب الحديث.

قال ـ تعالى ـ: **﴿واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾** [لقمان: ١٩].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: **﴿واغضض من صوتك﴾**: «أي لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه؛ ولهذا قال: **﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾**.

وقال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير.

أي غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه، ورَفْعِه، وهو مع هذا بغيض إلى الله.

وهذا التشبيه بالحمير يقتضي تحريمه، وذمه غاية الذم». (١)

وقال ابن سعدي في تفسير الآية السابقة **﴿واغضض من صوتك﴾**: «أدباً مع الناس، ومع الله، **﴿إن أنكر الأصوات﴾** أي أفظعها وأبشعها، **﴿لصوت الحمير﴾** فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة لما اختص الحمار بذلك، الذي علمت خسته وبلادته». (٢)

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٤٣٠.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ٦/ ١٦٠.

٢٦ ـ الغلظة في الخطاب:

فتجد من الناس من هو غليظ القلب، ذو فظاظة، وكزازة، فإذا خاطب الناس أغلظ لهم في القول، وجابههم بالعنف، وواجههم بالشدة.

وتجد من الناس من يذهب في الإنكار على من يراه مبطلاً مذهب الفظاظة في القول، فيرميه باللعن والشتائم.

مما يبذر الشقاق الذي نهينا عنه، بل ربما حمل المبطل على التعصب لرأيه، وقبض عليه باليمين وبالشمال.

وهذا السلوك لا ينبغي؛ وذلك بسبب ما يفضي إليه من شر، وعداوة، ومباغضة.

فالناس يعرفون أن طريقة السباب إنما يسلكها العاجز عن إقامة الحجج الدامغة، ولهذا ترى المقال الذي يحرر في سعة صدر وأدب مع المخالف ـ يجد من القبول وشد الأثر في النفس ما لا يجده المقال الذي يخالطه السفه والحماقة.

فالكلام الطيب العفُّ اللَّيِّن يجمل مع الأصدقاء والأعداء جميعاً، وله ثماره الحلوة، وظلاله الوارفة.

فأما مع الأصدقاء فهو يحفظ مودتهم، ويستديم صداقتهم، ويمنع كيد الشيطان أن يوهي حبالهم، ويفسد ذات بينهم؛ فالشيطان متربص ببني آدم، يريد أن يوقع بينهم العداوة، والبغضاء، وأن يجعل من النزاع الحقير عراكاً دامياً.

ولن يسد الطريق أمامه كالقول الجميل.

وأما حسن الكلام مع الأعداء فهو يطفىء نار الخصومة، ويكسر حدة العداوة، أو هو على الأقل يوقف تطورَ الشرِّ، واسْتِطَارَ الشَّرَر. (١)

فيالله كم للكلمة الطيبة من أثر في النفس، وكم لها من وقع عظيم في القلب؛ فكم من مودة استجلبت بها، وكم من عداوة مغراة وئدت بسببها.

قال ـ تعالى ـ: **﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾** [الإسراء: ٥٣].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: «يأمر ـ تبارك وتعالى ـ عبده ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلامَ الحسنَ، والكلمة الطيبة؛ فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشرُّ، والمخاصمةُ، والمقاتلة؛ فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، وعداوتُه ظاهرة بينة». (٢)

وقال ـ تعالى ـ: **﴿وقولوا للناس حسناً﴾** [البقرة: ٨٣].

قال ابن سعدي في تفسير هذه الآية: «ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب.

---

(١) انظر خلق المسلم ص ٨٠، والدعوة إلى الإصلاح لمحمد الخضر حسين ص٥٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/٤٥.

ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول؛ فيكون في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح حتى للكفار» .(١)

وإذا كان لين الكلام يجمل مع كل أحد ـ فَلَأَنْ يجمل مع من له حق، أو جاه، أو رياسة من بابٍ أولى؛ فمخاطبة هؤلاء باللين أمر مطلوب شرعـاً، وعقلاً، وفطرةً، وهكذا كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخاطب رؤساء العشائر والقبائل .(٢)

قال ـ تعالى ـ لموسى ـ عليه السلام ـ عندما بعثه إلى فرعون: **﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾** [طه: ٢٣، ٤٤].

وقال ـ عز وجل ـ في الآية الأخرى: **﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى، فقـل هل لك إلى أن تزكى، وأهـديك إلى ربك فتخشى﴾** [النازعات: ١٧-١٩].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وتأمل امتثال موسى لما أُمِر به كيف قال لفرعون: **﴿هـل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى﴾** فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض لا مخرج الأمر، وقال: **﴿إلى أن تزكى﴾** ولم يقل: إلى أن أزكيك، فنسب الفعل إليه هو، وذكر لفظ التزكي دون غيره؛ لما فيه من البركة، والخير، والنماء.

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٧٣.
(٢) انظر بدائع الفوائد لابن القيم ٣/ ١٣٢.

ثم قال: ﴿**وأهـديـك إلى ربك**﴾ أكون كالدليل بين يديك، الذي يسير أمامك.

وقال: ﴿**إلى ربك**﴾ استدعاءً لإيمانه بربه الذي خلقه، ورزقه، ورباه بنعمه صغيراً وكبيراً». (١)

ولولا أن هذه الكلمات النيرات المباركات الطيبات التي تأخذ باللب، وتنفذ إلى شغاف القلب لولا أنها وجدت قلباً قاسياً، عاسياً، مارداً على الكفر والطغيان ـ لأثَّرت به، وقادته إلى الهدى والرشاد.

وكذلك قول إبراهيم الخليل لأبيه: ﴿**يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً، يا أبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً**﴾ [مريم: ٤٢ ـ ٤٥].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ معلقاً على هذه الآيات: «فابتدأ خطابه بذكر أُبُوَّتِهِ الدالة على توقيره، ولم يُسَمِّه باسمه، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال فقال: ﴿**لِمَ تعبدُ مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً**﴾ ولم يقل: لا تعبد، ثم قال: ﴿**يا أبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك**﴾ فلم يقل: إنك جاهل لا علم عندك، بل عدل عن هذه العبارة إلى ألطف عبارة تدل على هذا المعنى فقال: ﴿**جاءني من العلم ما لم يأتك**﴾.

ثم قال: ﴿**يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن**

(١) بدائع الفوائد ٣/١٣٢ ـ ١٣٣.

فتكون للشيطان ولياً﴾ فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه.

وقال: «يَمَسَّكَ» فذكر لفظ المس الذي هو ألطف من غيره، ثم نَكَّرَ العذاب، ثم ذكر الرحمن، ولم يقل الجبار، ولا القهار، فأي خطاب ألطف وألين من هذا؟». (١)

وبعد أن تبين لنا ما للكلام اللين من فضل وأثر ـ لِقَائِلٍ أن يقول: هل اللين هو الأسلوب الذي ينبغي سلوكه مع كل أحد، ولا يُعْدَل عنه إلى غيره؟.

والجواب أن يقال: نعم هذا هو الأصل في الكلام حتى مع المخالفين كما قال ـ تعالى ـ **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾** [العنكبوت: ٤٦].

ولكن قد يعدل عنه إلى غيره حسب ما تقتضيه الحكمة ومقامات الأحوال.

مثال ذلك أن يجور علينا أثيم، فيتعدى حدوده، ويَلِجَّ في عتوه ونفوره، ويتبجح في نفث سمومه وبث شبهاته.

فمثل هذا لا ينفع مع اللين، بل يتعين ـ والحالة هذه ـ أن يُكبح جماحُه، وأن يرد عدوانه؛ ولهذا قال ـ تعالى ـ في تمام الآية السابقة في شأن مجادلة أهل الكتاب: **﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾** [العنكبوت: ٤٦].

ولهذا كان موسى ـ عليه السلام ـ متلطفاً مع فرعون غاية

---

(١) بدائع الفوائد ٣/١٣٣.

التلطف في بداية الأمر ـ كما مر قريباً ـ وعندما رأى موسى من فرعون العنادَ، والاستكبارَ، ومحاولةَ الصد عن الحق بعد أن اتضح له الدليلُ، واستبانت له السبيلُ ـ أغلظ له في الخطاب كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً**﴾ [الإسراء: ١٠٢].

فأين هذا الخطاب من الخطاب الأول؟.

وفي نهاية المطاف، وبعد أن أيس من فرعون دعا عليه بتلك الدعوات العظيمة، التي كانت سبباً في هلاك فرعون ودماره.

﴿**وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون**﴾ [يونس: ٨٨-٨٩].

٢٧ ـ الشدة في العتاب:

فَمِنَ الناس مَنْ يشتد في عتاب إخوانه عند أدنى هفوة أو زلة، إما لِحِدَّةٍ في طبعه، وإما لظنه أنه لو لم يفعل ذلك لسقطت منزلته، أو غير ذلك.

فإذا قَصَّرَ أحد من إخوانه في حقه، أو ربما أساء إليه إساءة يسيرة ـ عاتبه بشدة وغلظة.

وربما تأخر عليه ضيفه عن الموعد المحدد لِعُذْر أو نحوه، وبدلاً من أن يعذره ويقضيه حق التكرمة ـ تجده يشتد عليه في العتاب، ويمطر عليه وابلاً من اللوم والتقريع.

فالشدة في العتاب، وقلة التغاضي عما يصدر من الأخطاء ـ مما يسبب النفور ممن يتصف به، ومما يوجب الرهبة منه، والرغبة عن مجالسته.

فَدَعِ العتابَ فَرُبَّ شرٍّ هَاجَ أَوَّلُه العتاب[١]

فالعاقل اللبيب لا يعاتب إخوانه عند كل صغيرة وكبيرة، بل يلتمس لهم المعاذير، ويحملهم على أحسن المحامل.

ثم إن كان هناك ما يستوجب العتاب عاتبهم عتاباً ليناً رقيقاً.

ثم ما أحسن المرء أن يتغاضى ويتغافل؛ فالتغاضي والتغافل من أخلاق الأكابر والعظماء؛ فهو دليل على سمو النفس، وأريحيتها، وشفافيتها، وهو مما يرفع المنزلة، ويعلي المكانة.

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

قال ابن حبان ـ رحمه الله ـ: «من لم يعاشر الناس على لزوم الإغضاء عما يأتون من المكروه، وترك التوقع لما يأتون من المحبوب ـ كان إلى تكدير عيشه أقرب منه إلى صفائه، وإلى أن يدفعه الوقت إلى العداوة والبغضاء أقرب منه أن ينال منهم الوداد وترك الشحناء»[٢].

وقال ابن الأثير ـ رحمه الله ـ عندما تحدث في تاريخه عن صلاح الدين الأيوبي: «وكان ـ رحمه الله ـ حليماً حسن الأخلاق، متواضعاً، صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه،

---

(١) عيون الأخبار ٣/٢٩.

(٢) روضة العقلاء ص ٧٢.

يسمع من أحدهم ما يكره، ولا يعلمه، ولا يتغير عليه.

وبلغني أنه كان جالساً وعنده جماعة، فرمى بعض المماليك بعضاً بسرموز[١] فأخطأته، ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته، ووقعت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جليسه؛ ليتغافل عنها». [٢]

وقال أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ:

أُغَمِّضُ عيني عن أمورٍ كثيرةٍ   وإني على ترك الغَمُوضِ قديرُ
وما من عمىً أُغْضِيْ ولكن لربما   تعامى وأغضى المرءُ وهو بصيرُ
وأسكتُ عن أشياءَ لو شئتُ قُلْتُهَا   وليس علينا في المقال أميرُ
أُصَبِّرُ نفسي باجتهادي وطاقتي   وإني بأخلاق الجميعِ خبيرُ[٣]

وإذا كان التغاضي والتغافلُ من أفضل خصال الحمد ـ فإن أحقَّ الناس بأن تغفر زلاتهم، وتتغاضى عن هفواتهم، وتتجنب كثرة لومهم وتعنيفهم ـ رجالٌ عَرفت منهم المودة، ولم يقم لَدَيْكَ شاهدٌ على أنهم صرفوا قلوبهم عنها.

فلو أخذت تُعَنِّفُ من إخوانك كلَّ من صدرت منه هفوة لم تلبث أن تفقدهم جميعاً، ولم يبق لك على ظهر الأرض صديقٌ غير نفسك التي بين جنبيك.

---

(١) سرموز: لا أدري أهي لفظة أعجمية؟ أم هي مصحفة وأصلها قُشْرُ موزٍ؟ لا أدري.

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٩/٢٢٥.

(٣) ديوان الإمام علي ص ١٠٦.

والحاصل أن ما يصدر من الصديق إن كان من قبيل العثرة التي تقع في حال غفلة، أو كان خطأً في اجتهاد في الرأي ـ فذلك موضع الصفح والتجاوز، ولا ينبغي أن يكون له في نقض الصداقة أثر كثير أو قليل.

قال أحدهم:

لا يُزَهِدَنَّك من أخٍ   لك أن تراه زلَّ زلَّهْ[1]

وقال الآخر:

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ   جاءت محاسنُه بألف شفيعِ

وقال الآخر:

فإن يكن الفعلُ الذي ساء واحداً   فأفعالُهُ اللائي سررنَ أُلوفُ

وأما إن كان عن زهدٍ في الصحبة، أو انصرافاً عن الصداقة ـ فلك أن تزهد به، وتقطع النظر عن صداقته.

وهذا موضع الاستشهاد بمثل قول الكميت:

وما أنا بالنِّكس الدنيء ولا الذي   إذا صدَّ عني ذو المودة يقربُ

ولكنه إن دام دُمْتُ وإن يكن   له مذهب عني فلي فيه مذهبُ

ألا إن خير الودِّ ودٌّ تطوعت   له النفسُ لا ودٌّ أتى وهو متعبُ

والفرق بين عثرة قد تصدر من ذي صداقة وبين جفاء لا يكون إلا من زاهد في الصداقة ـ يرجع فيه الرجل إلى الدلائل التي لا يبقى فيها ريب.

(١) روضة العقلاء ص ٤٥.

أما مجرد الظنون فلا يُلتفت إليها، ولا يُعَوَّل عليها.

والتفريط في جانب الصديق ليس بالأمر الهين؛ فلا ينبغي الإقدام عليه دون أن تقوم على قصده لقطع المودة بَيِّنةٌ واضحة؛ ذلك أن المرء لا يخلو - وهو معرض للغفلة والخطأ - أن يُخِلَّ بشيء من واجبات الصداقة.

فإن كنت على ثقة من صفاء مودة صديقك - أقمتَ له من نفسك عذراً، وسِرْتَ في معاملته على أحسن ما تقتضيه الصداقة.

فإذا حام في قلبك شبهة أن يكون هذا الإخلال ناشئاً عن التهاون بحق الصداقة - فهذا موضع العتاب؛ فالعتاب يستدعي جواباً، فإن اشتمل الجواب على عذر أو اعتراف بالتقصير فاقبل العذر، وقابل التقصير بصفاء خاطر، وسماحة نفسٍ.

وعلى هذا الوجه يحمل قول الشاعر:

أعاتب ذا المودة من صديق إذا ما رابني منه اغترابُ
إذا ذهب العتابُ فليس ودٌّ ويبقى الودُّ ما بقي العتاب(١)

ومما يدلك على أن صداقة صاحبك قد نبتت في صدر سليم أن يجد في نفسه ما يدعوه إلى عتابك، حتى إذا لقيته بقلبك النقي، وجبينك الطلق - ذهب كل ما في نفسه، ولم يجد للعتاب داعياً، كما قال أحدهم:

أزور محمداً وإذا التقينا تكلمتِ الضمائرُ في الصدورِ

---

(١) بهجة المجالس ٤/٧٣٨.

فارجـع لَمْ ألُـمْـهُ ولم يلمني   وقد رضي الضميرُ عن الضميرِ[١]

فإن أكثر صاحبك من الإجحاف في حق الصداقة، ولم تجد له في هذا الإجحاف الكثير عذراً يزيل من نفسك الارتياب في صدق مودته ـ فذلك موضع قول القائل:

أقْلِلْ عتـابَ من اسْتَـرَبْتَ بودِّه   ليسـت تنـال مودةٌ بعتـاب[٢]

٢٨ ـ التقصير في أدب الهاتف:[٣]

فالهـاتف في هذا العصـر يعد أهم وسائل الاتصال الشفوية وأسرعها؛ فهو يعطي المتهاتفين فرصة الإيضاح بلا عناء، ولا مكاتبة؛ فكم في ذلك من توفير للجهد، والوقت، والمال، وتلبية المطلوب بأقصر وقت، ورفع مشقة الذهاب والإياب، بل والسفرِ لأمور تقضى بواسطة الهاتف؛ فلله الحمد والمنَّة.

هذا وللهاتف آداب مطلوبة من الطرفين: المتَّصِل والمتَّصَل عليه، وإن كان بعضها من جانب المتَّصِل آكد؛ لأنه هو الطالب، والطالب قريب من السائل، ففي موقفه ضعف، فليجبره بحسن الأدب.

وإن مما يلاحظ أن هناك تقصيراً كبيراً في أدب الهاتف، ومن

(١) عيون الأخبار ٣/٢٦.

(٢) انظر رسائل الإصلاح، ٢/١٥ ـ ١٦ ففيه تفصيل جميل لهذا الأمر، وانظر سوء الخلق مظاهره ـ أسبابه ـ علاجه، للكاتب ص ١٠٤ـ١٠٦.

(٣) الحديث في هذه الفقرة أكثره مستفاد من أدب الهاتف للعلامة د. بكر أبو زيد ـ حفظه الله ـ.

مظاهر ذلك مايلي :

أ ـ قلة المبالاة بصحة الرقم المطلوب :

فمن الناس من لا يبالي بصحة الرقم الذي طلبه ، مما يوقعه في الغلط ، فيتسبب في إيقاظ نائم ، أو إزعاج مريض ، أو إشغال الآخرين ، أو نحو ذلك .

ومن هنا كان واجباً على المتَّصِل ألا يتصل إلا بعد التأكد من معرفة الرقم ، إما أن يكون مكتوباً أمامه ، أو أن يكون متأكداً من حفظه في ذاكرته .

ثم إذا وضع إصبعه على الهاتف فَلْيُتْبِعْه بصره ، فإن حصل خطأ فليتلطف بالاعتذار .

ب ـ شدة الغضب حال الاتصال الخطأ :

فالبعض يشتد غضبه ، ويرتفع صوته ، ويبادره بالدعاء إذا اتصل عليه متصل فأخطأ الرقم .

وهذا لا يحسن بالمرء ؛ فيا أيها المتَّصَل عليه ، لا تنفعل حينما يحصل شيء من ذلك ، بل تأنَّ ، ولا تعجل باللوم والغضب ، بل تلطَّف بالقول ؛ فإن كان المتَّصِل غالطاً حقيقة فهو غير آثم ، وقد أدخلت إليه السرور بلطفك ، ولا سبيل لك عليه شرعاً .

وإن كان متعمداً فقد أحسنت في تلطفك ، ولك الأجر وعليه الوزر .

جـ ـ قلة المراعاة لوقت الاتصال :

فإذا كان لك حاجة في الاتصال فاذكر أن للناس أشغالاً

وحاجاتٍ، ولهم أوقات طعام، وأوقات نوم وراحة.

فعليك تَحَـرِّي الـوقت المنـاسب، مراعياً ظروف العمـل، وارتباطاتِ أخيك، وما عليه من واجبات ومسؤوليات، ومراعياً ما لدى أهل البيت من أوقات نوم، وراحة، وطعام.

ثم إذا اعتذر منك إلى وقت آخر فاقبل ذلك بانشراح صدر.

وإذا قيل انتظر، فانتظر وأنت مُنَعَّمُ البال، غير مُتَبَرِّمٍ.

وحكم مراعاة الاتصال هذا إنما هو في غير الأماكن المفتوحة على مدار ساعات الليل والنهار، كالفنادق، ودور التأجير للمسافرين، ومن في حكمهم.

د ـ الإطالة بالمكالمة بلا داعٍ:

والمقياس في ذلك أنَّ لكل مقام مقالاً، ولكل مقال مقداراً؛ فاحذر الثرثرة، والإملال، والإطالة، والإثقال.

هـ ـ قلة الاعتداد بالسلام من المتَّصِل بدايةً ونهايةً:

فمن الناس من لا يأبه بالسلام حال الاتصال لا في البداية ولا النهاية، ومنهم من يستبدل تحية الإسلام ـ السلام عليكم ـ بغيرها من التحيات الأخرى، كأن يقول (صباح الخير، أو صباح النور) أو أن يقول (ألو) أو (كيف الحال) أو نحوها.

وفي هذا ابتعاد عن السنَّة، واستبدال للذي هو أدنى بالذي هو خير.

و ـ سكوت المتَّصِل إذا رفعت السماعة:

فمن المتَّصِلين من يسكت إذا رفعت السمـاعـة حتى يتكلم

المتَّصَلُ عليه، وفي هذا إخلال للأدب من عدة جهات:

منها: مخالفة السنة في بدء المستأذن والقادم بالسلام.

ومنها: أن المتصل هو الطالب فعليه المبادرة بالسلام.

ومنهـا: أن بعض من قلَّ أدبُهم يقصد الفحص والتَعَرُّف هل أنت موجود أو لا؟

فإذا رفعت السماعة وقلتَ: نعم عرف المراد فوضعها.

ز ـ التعمية على المتَّصَل عليه:

وذلك بألا يذكر المتَّصِل اسمه حال الاتصال، بحيث يعدل عن ذلك فإذا سئل عن اسمه قال: أنا، أو أنا صديقه، أو أنا جاره، أو نحو ذلك.

ومـاذا عليك أيها المتَّصِل أن تقول أنا فلان الفلاني، أو بما يُعَرِّف شخصك عنده؟

ح ـ خضوع المرأة بالقول حال المهاتفة، واسترسالُها بالحديث مع الرجال:

قال الله ـ تعالى ـ: في نساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **﴿فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً﴾** [الأحزاب: ٣٢].

هذا في حق نساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللاتي هن أمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ واللاتي لا يطمع فيهن طامع، وهن في عهد النبوة.

فكيف بمن سواهن؟ إنَّ نَهْيَهُنَّ عن الخضوع من بابٍ أولى،

فاتقين الله يا نساء المؤمنين، وقلن قولاً معروفاً في الخير، أي بلا ترخيم ولا تمطيط، فلا تخاطب المرأةُ الأجانب كما تخاطب زوجها.

وإذا كان يحرم على المرأة ذلك ـ فإنه يحرم على الرجل سماعُ صوتها بتلذذ، ولو كان صوتها بقراءة القرآن.

وإذا شعرت المرأة بذلك حرم عليها الاستمرار في الكلام معه؛ لما يدعو إليه من الفتنة.

ط ـ إزعاج الناس بالأخبار الكاذبة:

فمن الناس من نضب ماء الحياء في وجهه، وقلَّ وقارُ الله في قلبه، فلا يبالي بما يقول، ولا يأنف من ترويع المسلمين.

فتجد هذا الصفيق يتصل ببعض البيوت ويقول ـ مثلاً ـ: لقد حصل على ابنكم حادث في السيارة فمات، أو هو الآن في حالة خطر أو نحو ذلك.

فما المتوقع أن تكون النتيجة لهذه الكذبة خصوصاً إذا سمع هذا الخبر أم أو زوجة؟

ألا فليتق الله من يقوم بذلك، وليحذر عقوبة الله العاجلة تنزل بساحته.

ي ـ تسجيل صوت المتكلم دون إذنه وعلمه:

فهذا ضرب من ضروب الخيانة، وإذا نشرت هذه المكالمة للآخرين فهي زيادة في التخون وهتك الأمانة.

ك ـ المعاكسات الهاتفية:

فمن السفلة من يتصل على البيوت مستغلاً غيبة الراعي؛

ليتخذها فرصة علَّه يجد من يستدرجه إلى سفالته.

وهذا نوع من الخلوة أو سبيل إليها.

ومنهم من يستدرج بريئة في الكلام ثم يسجل صوتها ثم يتخذ ذلك ذريعة لتهديدها وإسماع أقاربها صوتَها إن لم تستجب لمطالبه.

فهـذه الأعمال وأمثالها حرام، وإثم، وجناح، وفاعلها حري بالعقوبة، فيُخشى عليه أن تنزل به عقوبة تلوث وجه كرامته.

فعلى رب الدار أن يبذل الأسباب، ويوفر الضمانات، لحماية محارمه من العابثين والسفهاء.

ومن هذه الأسباب أن يكون الهاتف في مكان لا تغاب عنه الرقابة البيتية، مع منع تعدد أجهزة الهاتف، خاصة في غرف البنات والمراهقين، وأن ينظم الراعي مع أهل بيته من يتولى الرد على الهاتف، وآداب الرد، وعدم الاسترسال مع المتَّصِل، وهكذا مما لا يخفى على محبي العفة والكرامة.

٢٩ ـ التقصير في أدب الحوار:

فالناس كثيراً ما يحتاجون إلى الحوار؛ ليصلوا من خلاله إلى نتيجة ما، سواءَ في المسائل العلمية، أو غيرها من الأمور التي تتفاوت في فهمها مدارك العقول.

والحوار المنهجي مفيد في إيصال الفكرة للآخرين، ومفيد في تدريب المحاور نفسه؛ إذ يرتقي بطريقته في التفكير والأداء، ويُدَرِّبه على كبح جماحه، وضبط نفسه ولسانه، ويقوي لديه ملكة المحاكمة

والتفكير المتزن، مما يجعله مقبولاً بدرجة أكبر.(١)

ثم إن الناس يصلون من خلال الحوار المنضبط إلى قناعات معينة، وتصورات صحيحة.

كما أنه سبب لاتساع آفاقهم، وتفتح مداركهم؛ ولهذا عني القرآن به عناية بالغة؛ فهو الطريق الأمثل للإقناع الذي ينبع من الأعماق.

إلا أن المتأمل في حوارات الناس يلحظ تقصيراً كبيراً في هذا الجانب.

وقبل الدخول في ذكر جوانب التقصير في أدب الحوار ـ يحسن أن يُفَرَّقَ بين الحوار والجدال تفريقاً يوضح مدلول كل منهما.

فهما يلتقيان في أنهما حديث أو مناقشة بين طرفين، لكنهما يفترقان بعد ذلك.

أما الجدال فهو على الأغلب اللددُ في الخصومة وما يتصل بذلك، ولكن في إطار التخاصم بالكلام؛ فالجدال، والمجادلة، والجدل كل ذلك ينحو منحى الخصومة ولو بمعنى العناد بالرأي، والتعصب له.

هذا وستتضح معالمه في الفقرة التالية.

وأما الحوار والمحاورة فهو مراجعة الحديث، ومداولة الكلام بين طرفين، ينتقل من الأول إلى الثاني، ثم يعود إلى الأول وهكذا،

---

(١) انظر: في أصول الحوار إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي ص ٧.

دون أن يكون بين هذين الطرفين ما يدل بالضرورة على وجوب الخصومة.

وأما الآن فإلى ذكر بعض الجوانب التي يُقصَّر فيها في أدب الحوار.

أ ـ قلة الإخلاص:

وذلك بأن يدخل المرء في حوار لا يريد به وجه الله، ولا الوصول من خلاله إلى معرفة الحق.

وإنما يريد أن يظهر براعته، ويبرز مقدرته، ويبز أقرانه، وينتزع إعجاب الحاضرين.

قال الرافعي ـ رحمه الله ـ: «متى ما وقع الخلاف بين اثنين، وكانت النية صادقة مخلصة ـ لم يكن اختلافهما إلا من تَنَوِّعِ الرأي، وانتهيا إلى الاتفاق بغلبة أقوى الرأيين، ما من ذلك بُدٌّ». (١)

وعن أحمد بن خالد الخلال قال: «سمعت محمد بن إدريس الشافعي يقول: ما ناظرت أحداً فأحببت أن يخطىء.

وعن الحسين الكرابيسي يقول: سمعت الشافعي يقول: ما ناظرت أحداً قط إلا أحببت أن يُوفَّق، ويُسدَّدَ، ويُعان، ويكون عليه رعايةٌ من الله وحفظ.

وما ناظرت أحداً إلا ولم أُبالِ بَيَّنْ الله الحق على لساني أو لسانه». (٢)

---

(١) وحي القلم للرافعي ٢/٣١٥.

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/١٦٧.

ب ـ الدخول في النيات:

وذلك بإلصاق التهم بالمُحَاوِر، وحمل كلامه على أسوأ المحامل، وأخذه بلازم قوله دون أن يلتزمه، أو أن يقول له: أنت لم تُرِد بما قلت وجه الله، أو نحو ذلك.

فهذا مما يفسد جوَّ الحوار، ويفقده مصداقيته وفائدته، ويخرجه إلى المهاترة والمسابَّة.

فيجمل بالمرء أن يحسن الظن بمن يحاوره، وأن لا يدخل في نيته، وأن يحمل كلامه على أحسن المحامل ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

جـ ـ الغضب:

فكثير من المحاورين إذا أبدا وجهة نظر قابلة للأخذ والرد ثم عارضه صاحبه ولم يوافقه عليها ـ غضب لذلك أشد الغضب.

وهذا لا يحسن بالمحاور، بل يحسن به أن يضبط نفسه، وألا يحمل الناس على ما يراه صواباً.

د ـ الهجر والصرم:

فكثيراً ما تَفْسُد ذاتُ البين بين المتحاورين عند الاختلاف في وجهات النظر.

حتى إن ذلك لَيَحْدثُ بين الزملاء والأصدقاء؛ فلربما أودى الخلاف بالصداقة، وذهب بالمودة والمحبة.

إن المحاورة والمناقشة تؤثر ـ في غالب الأحيان ـ على القلوب، وتكدر الخواطر؛ فتذكر ذلك جيداً وأنت تحاور، وتذكر قول الشاعر:

واختلافُ الرأيِ لا يُفْسِدُ للودِّ قَضِيَّة

وقول الآخر:

في الرأي تضطغن العقول وليس تضطغن الصدور

فليست المشكلة أن نختلف، وإنما هي ألا نعرف كيف نختلف، وليس الحل بألا نختلف أبداً؛ فهذا غير ممكن ولا متصور، وإنما هو ألا نصعِّدَ الخلاف، وألا نسعى إلى إذكائه، وأن نعرف كيف نختلف كما نعرف كيف نتفق، كما كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فهم خير الناس حال الوفاق، وحال الخلاف.

فمع أن الخلاف وقع بينهم في العديد من المسائل إلا أن قلوبهم كانت متوادَّةً، متحابة، متقاربة، متآلفة.

بل لقد كانوا مثالاً يحتذى، ونهجاً يقتفى حتى في حال الفتنة والقتال؛ فبرغم ما حصل بينهم من قتال وفتنة إلا أن منار العدل والتقوى كان قائماً فيهم؛ فلم يُكفِّرْ بعضهم بعضاً، ولم يُبدِّع بعضهم بعضاً، بل كانوا يأخذون العلم من بعض، ويلتمسون المعاذير لبعض، بل كانوا يثنون على بعض ويَتَرَحَّمون على بعض.

هـ ـ إغفال الجوانب العاطفية:

فالجوانب العاطفية لها دور كبير في المحاورة وغيرها، فكثير من المحاورين يغفل هذا الجانب ولا يأبه به.

وهذا خلل يحسن بالمُحَاوِر أن يتجنبه؛ ففي بعض الأحيان قد لا ينفع المنطق والبرهان، وإنما يجدي التودد والإحسان.

فحينئذٍ أَلْقِ عصا المنطق والبيان، واحمل راية الشفقة

والحنان؛ حينها تَخْطِب الودَّ، وتستولي على الأمد.

فكثيراً ما تبدأ المناقشة أو المحاورة، وروح العداوة تسيطر على أحد الطرفين.

فإذا ما دفع الآخر بالتي هي أحسن انقلبت العداوة إلى مودة، والبغضة والوحشة إلى محبة وألفة.(١)

فحري بالمحاور أن يكسب صاحبه، وأن يخطب ودَّه في كل مناسبة تسنح له؛ فيثني عليه إذا أجاد، ويسلِّم له إذا أصاب، ويرده إلى الصواب بلطف إذا هو أخطأ، ويذكر مزاياه في حضوره وغيبته، ويبادر بالهدية والزيارة إذا أحس نفرة منه.

وهذه الأمور ليس بالسهل تحصيلها، ولا ليس بمقدور كل إنسان أن ينالها، بل تحتاج إلى توفيق، وتدريب، وصبر، وشجاعة ﴿**وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم**﴾ [فصلت: ٣٥].

و ـ قلة الإنصاف:

فقلة الإنصاف خصلة قبيحة، تنساق بصاحبها إلى دركات سحيقة، فتقوده إلى الظلم، والكبر، والتزيد، والاعتساف، وتَنْجَرُّ به إلى الصرم، والهجر، والقطيعة.

قال الحكيم العربي:

ولم تزل قلةُ الإنصافِ قاطعةً   بين الرجال وإن كانوا ذوي رحم

ثم إن قلة الإنصاف تسقط الاحترام من العيون والقلوب،

---

(١) انظر في أصول الحوار ص ٧٥.

وتحول بين الرجل وبين أن يزداد علماً وفضلاً، كما أنها تخذل العلم، وتطمس شيئاً من معالمه، كما أنها تحدث فيه فساداً عريضاً.

فإذا لم ينصفك محاورُك، فَرَدَّ عليك الحقَّ بالشمال وباليمين، أو جحد جانباً من فضلك، أو تعامى عما معك من الحق وهو يراه رأيَ العين ـ فلا تسايرْهُ في ذلك، ولا تكن قلةُ إنصافِه حاملةً لك على أن تقابله بالعناد، فتردَّ عليه حقاً، أو تجحد له فضلاً، فاحترس من أن تسري لك من محاورك عدوى هذا الخلق الممقوت، فيلج في نفسك، وينشط له لسانك، وأنت تحسبه من قبيل محاربة الخصوم بمثل سلاحهم.

كلا، لا يحارب الرجل خصومه بمثل اعتصامه بالفضيلة، ولاسيما فضيلة كفضيلة الإنصاف؛ فهي تدل على نفس مطمئنة، وأفق واسع، ونظر في العواقب بعيد.

ولئن كان الإنصاف جميلاً فلهو مع الأقران أجمل وأجمل؛ ذلك أن الرجل يسهل عليه أن ينصف من هو أكبر منه سناً أكثر مما يسهل عليه أن ينصف قرينه؛ ذلك لأن أكبر عائق عن الإنصاف التحاسدُ. وحسد الإنسان لأقرانه أكبر وأشد من حسده للمتقدمين عليه في السن.

بل يسهل عليه أن ينصف أقرانه أكثر مما يسهل عليه أن ينصف من هو أحدث سناً منه؛ إذ يسبق إلى ظنه أن ظهور مزيةٍ لمن هو أحدث عهداً منه قد تفضي إلى أن يكون ذِكْرُه أرفعَ.

وفضل القرينِ على بعض أقرانه شائع أكثر من فضل المتأخر على المتقدم، وشيوع الشيء يجعله أهون على النفس مما هو أقل شيوعاً منه.

عن عمر بن سعيد عن أمه قالت: «قدم ابن عمر مكة، فسألوه، فقال: أتجمعون لي يا أهل مكة المسائل وفيكم ابن أبي رباح - يعني عطاءً -» .[(١)]

فابن عمر - رضي الله - كان صحابياً، وعطاء بن رباح - رحمه الله - كان تابعياً، ومع ذلك أنصفه ابن عمر، ولم يغمطه حقه.

فينبغي للإنسان أن يتيقظ للأحوال التي تَتَقَوَّى فيها داعيةُ العناد، ويُعِدَّ للوقوف عند حدود الإنصاف، ومقاومةِ تلك الداعية ما استطاع من قوة.

كذلك لا يصعب على الرجل أن ينصف قريباً أو صديقاً، بل لا يصعب عليه أن ينصف من لا تربطه به قرابة، أو صداقة، ولا تبعده منه عداوة.

والإنصاف الذي قد يحتاج فيه إلى مراوضة النفس كثيراً أو قليلاً - هو أن يبديَ بعض أعدائه رأياً سديداً، أو يناقشه في رأي مناقشة صائبة؛ فهذا موطن تذكير النفس بأدب الإنصاف، وإنذارها ما يترتب على العناد من إثم وفساد.

ومن الإنصاف الذي يدل على الرسوخ في الفضيلة أن يتحدث الرجل عن خصمه، فينسب إليه ما يعرفه له من فضل.

أُنشد في مجلس أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قول الشاعر:

---

(١) صفة الصفوة ٢/١٤٣.

فتىً كان يدنيه الغنى من صديقه إذا ما هو استغنى ويبعده الفقرُ
كأن الثريا عُلِّقتْ بجبينه وفي خَدِّه الشِّعرى وفي الآخر البدر

فلما سمعها علي ـ رضي الله عنه ـ قال: هذا طلحة ابن عبيدالله، وكان السيف ليلتئد مجرداً بينهما! .(١)

وإن مما يعين على اكتساب فضيلة الإنصاف ـ أن يحب المرء لإخوانه ما يحبه لنفسه؛ فذلك أقرب للتقوى، وأنفى للوحشة والبغضاء، وأدعى للرحمة والمودة والقربى؛ «فأعدل السِّيَر أن تقيس الناس بنفسك، فلا تأتي إليهم إلا ما ترضى أن يؤتى إليك» .(٢)

قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» .(٣)

قال الخطابي:

ارضَ للناس جميعاً مثلَ ما ترضى لنفسكْ
إنما الناسُ جميعاً كُلُّهُمْ أبناءُ جِنْسِكْ
فلهم نفسٌ كنفسك ولهم حسٌّ كَحِسِّكْ(٣)

ومما يعين على الإنصاف ـ أيضاً ـ أن يضع المرء نفسه موضع خصمه؛ فذلك مما يدعو لالتماس المعاذير، والبعد عن إساءة الظن، والحذر من مواطن الظلم والاعتساف.

---

(١) انظر رسائل الإصلاح ١/٣٨ ـ ٤٧.
(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ٧٣.
(٣) رواه البخاري ١/٩، ومسلم (٤٥).
(٤) أقوال مأثورة ص ٤٥٦.

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «من أراد الإنصاف فَلْيَتَوَهَّمْ نَفْسَهُ مكانَ خصمه؛ فإنه يلوح له وجهُ تَعَسُّفِهِ» .(١)

ز ـ التهكم بالمحاور:

وهـذا ممـا يسلكـه بعض الناس في محاوراته، فتراه يزدري مُحَاوِرَهُ، ويتهكم به، ويغضُّ من شأنه، ويحط من مرتبته.

وهذا الصنيع من آفات الحوار، وعلل المحاورين؛ فهو دليل على الكبـر والغرور، ومن علامات الإعجاب بالنفس، والاستطالة على الآخرين.

فالتهكم بالمحاور مما ينافي أدب الحوار، فلا ينبغي للمحاور أن يلجأ إليه إلا إذا اقتضى الحال ذلك، كأن تتحدث مع طائفة باعوا نفوسهم بمتاع هذه الحياة الدنيا، واندفعوا لإغواء الأمة، والكيد لها ولشريعتها بجميع ما يملكون من صفاقةٍ، وعناد، وسوء طَوِيَّة.

ولعل الناس يعذرونك حين تتصدى لكف بأس هؤلاء ويجري على لسانك أو قلمك في خلال جدالهم كلمةٌ تتهكم بعقولهم، أو تزدري آراءهم، أو تنبه على مكر انطوت عليه دعاياتهم.

فإنـك إن تهكمت بعقـول هؤلاء، أو ازدريت آراءهم ـ فإنما تضعها في مواضعها، وتَمسُّ خُيلاءهم بما يخفف من غلوائها.(٢)

ح ـ التحـدي والإفحـام:

فتلك آفة يعاني منها كثير من المحاورين، فتجد كثيراً منهم

(١) الأخلاق والسير ص ٨٠.

(٢) انظر الدعوة إلى الإصلاح ص ٥٥.

يحرص كل الحرص على إفحام صاحبه، وإسكاته، وربما الإطاحة به.

وهذا الأسلوب لا ينبغي ولو كان بالحجة والبرهان؛ ذلك أنه يورث التنافر، ويهيج العداوة، ويُبَغِّضُ صاحبه للآخرين؛ فلا تلجأ إليه؛ لأن كسب القلوب أهم من كسب المواقف.

ثم إنك قد تفحم محاورك، وتعجزه عن الجواب، لكنك لا تقنعه.

وقد تسكته بقوة حجتك، ولحن منطقك ومع ذلك لا يُسلِّم لك؛ لأنك قد أحرجته، وملأت قلبه غيظاً وحنقاً عليك، فيرفض التسليم لك بعاطفته، وإن كان معك بعقله.

ولعل وقع التحدي يكون أشد، وجرحه أغور ـ إذا كان أمام جمع من الناس، ويزداد الأمر شدة كلما زاد الجمع.

أما إذا تلطفت معه وترفقت به فإنه سينقاد إلى الحق، وسيسلم لك ويذعن إن عاجلاً أو آجلاً.

فإذا أنهيت ما تريد قوله، وأدليت بدليلك فاترك صاحبك وإن لم يوافقك؛ فهو مع مرور الزمن، وتَخَمُّرِ الفكرة في رأسه سيقتنع برأيك، بل ربما تبناه، ودافع عنه؛ فالوقت له قيمته، وهو جزء من علاج الأفكار والنفوس.(١)

ومع ذلك يبقى الإفحام هو الأسلوب الأمثل إذا استدعاه المقام، واقتضاه الحال، كما هو الشأن مع من يتعامى عن الحق، ويثير الشبه والأباطيل؛ فإفحامه مما يدحض حجته، ويكسر شوكته،

---

(١) انظر في أصول الحوار ص ٦٠ وكيف تحاور د. طارق الحبيب ص ٦١.

ويسقط هيبته.

وكـذلـك فعـل إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ حينما حاجَّه النمرود في ربه الذي آتاه الملك، فأفحمه الخليل وأسكته.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ط ـ تفخيـم النفـس:

فذلك مما يعاني منه كثير من المحاورين؛ فتراه يكثر من إدراج ضمير المتكلم (أنا)، أو ما يقوم مقامه كأن يقول: (في رأيي)، أو (حسب خبرتي)، أو (هذا ما توصلتُ إليه)، ونحو ذلك.

وأقبح ما في هذا أن يفخم نفسه أكثر من ذلك، فيأتي بضمير الجمع كأن يقول: (هذا رأينا)، أو (هذا ترجيحنا)، أو (هذا ما توصلنا إليه)، ونحو ذلك من العبارات الفَجَّة، التي تنم عن غرور ونقص.

فهذا كله مجلبة لتباعد الأنفس بعد تقاربها، ولتناكر الأرواح بعد تعارفها، وهو مما يفقد الحوار قيمته وفائدته؛ وذلك لما يتركه من انطباع سيء لدى السامع؛ فالإنسان بطبعه يكره من يتعالى عليه، وينزله منزلة الجاهل.

والبديل الصحيح عن ذلك أن يتحدث المرء مستعملاً الصيغ التي توحي بالتـواضـع، وعـزو العلم لأصحابه، كأن يقول: ويبدو للدارس كذا وكذا، أو يقول: ولعل الصواب أن يقال كذا وكذا، ونحو

ذلك من العبارات المشعرة بالتواضع، واهتضام النفس.(١)

ي ـ تجاهل اسم المحاور:

كأن يقول المرء بين الفينة والأخرى لمحاوره: يا فلان بغير اسمه تجاهلاً له، أو أن يناديه بلقب يكرهه.

ومن ذلك أن يكثر من إيراد ضمير المخاطب في مخاطبة محاوره كأن يقول: أنت، أو ما يشاكله كأن يقول: قلتَ، أو تكلمتَ، أو أخطأتَ، أو تعجلتَ، أو نحو ذلك.

فهذا مما ينافي الأدب، ويثير المحاور، ويجلب الضغائن.

فالأولى بالمرء أن لا يخاطب محاوره إلا باسمه مقروناً بتفخيمه وتبجيله، وإنزاله المنزلة اللائقة به، وإن كنّاه أو ناداه بلقب يَسُرُّه فحسن جميل(٢).

وهذا الأدب مقتبس من مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿**يا أهل الكتاب**﴾، وقوله: ﴿**يا أولي الألباب**﴾، وقوله: ﴿**يا أولي الأبصار**﴾.

ويتأكد هذا الأدب في محاورة الصغير للكبير، والمرؤوس للرئيس ونحو ذلك.

ك ـ التنازل عن المبدأ الثابت:

فهناك من يحاور غيره، فيتنازل له عن مبادئه الثابتة عند أدنى شبهة تثار عليه.

وهذا من آفات الحوار، ومما يتنافى مع الحزم.

---

(١) انظر في أصول الحوار ص ٧٥.

(٢) انظر كيف تحاور ص ٢١، ٢٨، ٢٩ ـ ٣٠.

وليس معنى ذلك أن يصر المرء على لجاجه وعناده بعد أن يتبين له الحق، بل الحكمة والعدل أن يرجع عن رأيه وقوله إذا لاح له وجه الصواب.

وإنما المقصود أن يثبت على مبدئه، ولا يرجع عما عقد عليه قلبه إلا إذا تبين له خلاف ذلك بالبرهان الساطع، والدليل القاطع.

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «الثبات الذي هو صحة العقد، والثبات الذي هو اللجاج مشتبهان اشتباهاً لا يفرق بينهما إلا عارف بكيفية الأخلاق.

والفرق بينهما أن اللجاج هو ما كان على الباطل، أو ما فعله الفاعل نصراً لما نشب فيه، وقد لاح له فساده، أو لم يَلُحْ له صوابه ولا فساده، وهذا مذموم، وضده الإنصاف.

وأما الثبات الذي هو صحة العقد فإنما يكون على الحق، أو على ما اعتقده المرء حقاً ما لم يَلُحْ له باطله، وهذا محمود، وضده الاضطراب.

وإنما يلام بعض هذين لأنه ضَيَّع تدبر ما ثبت عليه، وترك البحث عما التزم أحق هو أم باطل».[1]

وقال العقاد:

«العناد، والثبات على الرأي نقيضان؛ العناد إصرار بغير سبب، أو لسبب ظهر بطلانه.

---

(١) الأخلاق والسير ص ٥٧.

والثبات إصرار على رأي يؤمن به صاحبه، ولم يظهر له ما يدعوه إلى التحول عنه». (١)

ل ـ الإصرار على الخطأ، والأنفة من الرجوع إلى الحق:

فكما أن من آفاتِ الحوارِ تنازلَ المرءِ عن مبدئه الثابت ـ فكذلك من آفاته الإصرار على الخطأ والأنفة من الرجوع إلى الحق.

فمن المحاورين من يصر على رأيه بعدما تبين له فساده، ويأنف من الرجوع إلى الحق بعدما تبين له وجهُ الحقيقة الأبلج؛ إما خوفاً من سقوط منزلته، وإما لحسد تنطوي علي دخيلة نفسه، أو حذراً من تفوق الخصم، وحرصاً على الانفراد بخصال الحمد، أو متابعة للأصحاب، ومسايرة لمن هم على الشاكلة، أو لإرادة الإضلال، ومحاولة قتل الحق وطمس معالمه، أو غير ذلك من أسباب رد الحق، والإصرار على الباطل.

وهذه الآفة نوع من العناد «والعناد قبيح، ويشتد هذا القبح بمقدار ظهور الحجة على الرأي الذي تحاول رَدَّه على صاحبه؛ فمتى كانت الحجة أظهر كان العناد أقبح.

والإنصاف جميل، ويكون جماله أوضح وأجلى حيث يكون في حجة الرأي الصائب شيء من الخفاء، وحيث يمكنك أن تَتَحَيَّزَ لرأيك، وتُهَيِّيءَ كثيراً من الأذهان لقبوله». (٢)

كذلك قد تقول قولاً تراه صواباً، وقد تعمل عملاً تحسبه حسناً،

---

(١) أقوال مأثورة ص ٢٠٠ عن آخر كلمات العقاد ص ٣٩.

(٢) رسائل الإصلاح ١/٤٦.

فينقده آخرُ بميزان العلم الصحيح، ويريك أنك قد قلت خطأً، أو عملت سيئاً.

ففي مثل هذا المقام قد تجد في نفسك كراهةً للاعتراف بالخطأ في القول، أو الإساءة بالعمل.

فإن كنت على ذكر في فضيلة الرجوع للحق، وعلى بَيِّنةٍ من قبح الإصرار على الباطل ـ لم تلبث أن تكظم الكراهة، ولم تجد في نفسك حرجاً من أن تقول للناس: إني أخطأت في قولي، أو أسأت في عملي.

فالأكابر لا يأنفون من الاعتراف بالخطأ إذا أخطأوا، ولا يتَلَبَّثُون في الرجوع إلى الحق ولو عظمت مناصبهم وعلت أقدارهم.

والراسخون في الفضيلة لا يبالون أن يكون رجوعهم عن الخطأ أمام من خالفهم وحده، أو بمحضر جمع كبير.(١)

«وقد ينقل التاريخ شذراتٍ من حوادث المنصفين لمن خالفهم في أمر، أو المعترفين لبعض خصومهم بفضيلة، فتهتز في نفوس قرائها عاطفةُ احترامٍ لمن أقر بالخطأ، أو اعترف لخصمه بخصلة حمد.

وربما كان إكبارهم لمن أقر بالخطأ فوق إكبارهم لمن خالفه في الرأي فأصاب.

وربما كان إكبارهم لمن شهد لخصمه بمكرمة فوق إكبارهم للشخص المشهود له بتلك المكرمة.

(١) انظر رسائل الإصلاح ١/٤٢ ـ ٤٥.

وسبب هذا الإكبار عظمةُ الإنصافِ، وعزة من يأخذ نفسه بها في كل حال». (١)

ولو أخذت هذه الخصلة حظها من النفوس لعمَّ الائتلاف، ولقلَّ الاختلاف.

عن الربيع بن سليمان قال: «سمعت الشافعيَّ يقول: ما أورَدْتُ الحقَّ والحجة على أحد فقبلهما مني إلا هِبْتُه، واعتقدت مَوَدَّتَهُ، ولا كابرني على الحق أحد ودافع الحجة إلا سقط من عيني». (٢)

«ونقرأ في تاريخ العلامة محمد بن عبدالسلام أن ابن الصباغ اعترض عليه في أربع عشرة مسألة، فلم يدافع عن واحدة منها بل أقر بالخطأ فيها جميعاً». (٣)

«ويقص علينا التاريخ أن في الأساتذة من يحرص على أن يرتقي تلاميذه في العلم إلى الذروة، ولا يجد في نفسه حرجاً من أن يَظْهَرَ عليه أحدُهم في بحث، أو محاورة.

يذكرون أن العلامة أبا عبدالله الشريف التلمساني كان يحمل كلام الطلبة على أحسن وجوهه، ويبرزه في أحسن صوره.

ويروى أن أبا عبدالله ـ هذا ـ كان قد تجاذب مع أستاذه أبي زيد ابن الإمام الكلامَ في مسألة، وطال البحث اعتراضاً وجواباً حتى

(١) رسائل الإصلاح ١/٤٦.
(٢) صفة الصفوة ٢/١٦٧.
(٣) رسائل الإصلاح ١/٤٢.

ظهر أبو عبدالله على أستاذه أبي زيد، فاعترف له الأستاذ بالإصابة، وأنشد مداعباً:

أعلمه الرماية كلَّ يومٍ فلما اشتد ساعدهُ رماني». [١]

م ـ قلة العلم بمادة الحوار:

فقد يحاور المرء بدون علم؛ فإن فعل ذلك عَرَّض نفسه للإحراج، بل ربما خذل الحق خصوصاً إذا كان الذي أمامه محاوراً بارعاً، فلربما أقنع السامعين بفكرة خاطئة، أو شكَّكهم بفكرة صحيحة؛ فكم ضاع من حق بسبب سوء العبارة، وقلة العلم، وكم ظهر من باطل بسبب حسن العرض، وجمال العبارة.

في زخرف القول تزيينٌ لباطله والحقُّ قد يعتريه سوءُ تعبيرِ

فلا ينبغي لشخص أن يدخل في حوار إلا وقد أحاط به علماً؛ فالعلم بموضوع الحوار، والعلم بتفاصيله، والتسلح بالحجج والبراهين ـ سلاح ماضٍ بيد المحاور الناجح؛ إذ يمكنه من الوقوف على أرض ثابتة، وليس على رمال متحركة؛ فالمستيقن من الحق الذي معه تراه مطمئن الخاطر، آمناً على مذهبه من صولة الباطل؛ فينطق عن أناة وتَخَيُّرٍ للأقوال الصائبة.

والعرب تقول: «قبل الرمي يراشُ السهم»، أي هَيِّئِ الأمر، وأَعِدَّه قبل حاجتك إليه. [٢]

---

(١) رسائل الإصلاح ١/٤٤.

(٢) الأمثال لأبي عبيد ص ٢١٥.

أما من لم يكن على بصيرة من رأيه فإنه ينزعج عند الحوار، ويطيش به الجدل، حتى يقذف بالسباب، ويلفظ بالكلام من قبل أن يقيم له وزناً.

والعرب تقول في أمثالها: «عند النطاح يُغْلَبُ الكبشُ الأجم»؛ لأنه فعل ذلك من غير عُدَّةٍ هَيَّأَها.(١)

ثم إن حق الاعتراض والتخطئة، والتصدي للمحاورة لا يَتَأَتَّى لجاهل في مواجهة عالم، بل ولا يقبل منه.

ومن لا يعلم لا يصح له أن يتصدى لمن يعلم، ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه.

ولا يلزم من لديه علم أن يدخل في كل حوار؛ بل ينبغي له أن لا يدخل حواراً إلا وهو عالم به؛ إذ أن مجرد علمه في الأصل لا يكفي.

وخير ما يستعين به المحاور عند إرادته الحوارَ في موضوع ما ـ أن يجمع أطراف الموضوع، ويتصور جميع احتمالاته، ووجوهه، وأن يطلع على ما كتب فيه سواء من المؤيدين أو المعارضين، وأن يكون ذا نظر ثاقبٍ، وخبرة عالية بظروف المكان والزمان، وتطورات العلوم والمعارف، وطبائع النفوس ونزواتها.

وكلما كان أحسن في عرض معلوماته وإثبات أفكاره ـ كلما كانت الاستجابة له أدعى وأكبر.(٢)

(١) الأمثال لأبي عبيد ص ٢١٥.
(٢) انظر في أصول الحوار ص ٣٣ ـ ٣٤، والدعوة إلى الإصلاح ص ٥٤ ـ ٥٥.

ن ـ إصدار الأحكام في مستهل الحوار:

فمن المحاورين من يكون على بيِّنةٍ من أمره، وعلى علم بمادة حواره، ولكنه يتعجل النتائج، فيصدر أحكامه في بداية حديثه، ويجهر برأيه الصريح في مستهل حواره، وهذا مما قد يسبب ردَّ كلامه، والاعتراض عليه، والنفور منه ولو كان الحق معه.

فمن الحكمة أن يتدرج المحاور في طرح أفكاره، ومن حسن السياسة ألا يجهر برأيه الصريح في صدر مقاله.

وإنما يبتدىء بما يخف على المخاطبين سماعه من المعاني الحائمة حول الغرض، ثم يعبر عن المراد بلفظ مجمل، ثم يدنو من إيضاحه شيئاً فشيئاً، حتى لا يفصحَ عنه إلا وقد ألِفَتْه نفوسهم، وهدأت له خواطرُهم.

وعلى هذه الطريقة جرى مؤمنُ آلِ فرعونَ؛ فقد كان يكتم إيمانه وهو يحب أن يظهره، ويدعو قومه إلى مثله.

وكان يخشى بادرةَ غضبهم أو انتقامهم منه إذا هو صَرَّح بعقيدته.

وعندما أجمعوا على قتل موسى ـ عليه السلام ـ بادر هذا المؤمنُ الفرصةَ، واغتنم هذا الوقت، فقام ينكر عليهم هذه المؤامرة المخزية، وتَخَلَّصَ إلى أن دعاهم إلى الإيمان بما بُعث به هذا الرسول دعوة ظاهرة.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم**﴾ [غافر، ٢٨].

فلقد فاتحهم بالإنكار على قتله، وهذا لا يدل على أنه مُصَدِّقٌ برسالته؛ إذ قد ينهى العاقل عن سفك دم الرجل وهو من أبغض الناس إليه؛ تألماً من مشهد الظلم، أو حذراً مما ينشأ عنه من فتنة.

ودل بقوله: ﴿أن يقول ربي الله﴾ على ما لهذا الرجل من فضل في العقيدة، وأمأ إلى أنه لم يجيء شيئاً نكراً يستحق به هذه العقوبة الصارمة.

وذكَّرهم إذ قال: «**وقد جاء بالبينات من ربكم**» بالدلائل القائمة على صدقه في دعوى هذه الرسالة، وأخذ يَتَقَرَّب بهذه الجملة من دعوتهم إلى ربه، ولم يرد التظاهر بأنه من شيعته، فعزل نفسه عمن جاءهم بهذه البينات، وأضاف مجيئها إليهم خاصة، ثم استرسل في موعظته المنسوجة، ودعاهم إلى دين الحق بقوله الصريح كما قال ـ تعالى ـ عنه: ﴿**ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار، تدعونني لأكفر بالله، وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار**﴾ [غافر، ٤١-٤٢].

ولو أنه فاتحهم بهذه الدعوة الصريحة في بداية خطابه لربما ردوه، ولم يقبلوا منه شيئاً البتة.(١)

س ـ قلة المراعاة لعامل الزمان والمكان:

وذلك بأن يكون الحوار في زمان ضَيِّقٍ لا يتسع للأخذ والرد، كأن يكون قبيل وقت صلاة، أو أن يكون أحدهما على جناح سفر، أو يكون مستعداً لنوم، أو نحو ذلك.

---

(١) انظر الدعوة إلى الإصلاح ص ٦٣ ـ ٦٤.

ومن ذلـك أن يكـون الحوار في مكان مليء بالناس؛ فذلك مدعاة للرياء، والعناد، والحرص على الغلبة، والإطاحة بالخصم.

والأولى أن يكـون في مكـان محـدد؛ فذلك أجمعُ للفكرة، وأدعى لقبول الحق، وأقرب لصفاء الذهن، وأسلم لحسن القصد.

ع ـ التشعُّب في الحوار، والخروج عن المضمون:

فهـذا من آفـات الحوار، ومما يفقده أهميته، ويقلل الفائدة المرجوة منه.

فينبغي للمتحاورين أن يكون كلامهما ملائماً للموضوع، ليس فيه خروج عما هما بصدده.(١)

ف ـ محاورة ذي المهابة العظيمة:

فلا يحسن بالمرء أن يدخل في حوار مع أهل المهابة العظيمة والاحترام الوافر؛ كيلا تدهشَه وتذهلَه جلالةُ محاوره عن القيام بحجته كما ينبغي.(٢)

أما إذا كان المرءُ رابط الجأش، ساكن النفس، عالماً متيقناً بأن مهابة محاورة لن تقصره عن الإبانة عما لديه ـ فلا بأس بالمحاورة حينئذ.

٣٠ ـ الجدال والمراء والخصومة:

وهذا دأب كثير من الناس سواء في أحاديثهم ومنتدياتهم، أو

---

(١) انظر آداب البحث والمناظرة للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ٢/٧٦.

(٢) انظر آداب البحث والمناظرة ٢/٧٦.

في مطالبـاتهم وخصـومـاتهم، فتراهم يتجادلون ويتمارون عند كل صغيرة وكبيرة.

لا لجلب مصلحة، ولا لدرء مفسدة، ولا لهدف الوصول إلى الحق والأخذ به، وإنما رغبةً في اللدد والخصومة، وحبّاً في التَشَّفي من الطرف الآخر.

ولهذا تجد الواحد من هؤلاء يُسَفِّه صاحبه، ويرذل رأيه، ويرد قوله.

فلا يمكن ـ والحـالـة هذه ـ أن يصل المتجادلون إلى نتيجة طالما أن الحق ليس رائدَهم ومقصودَهم.

وإذا الـخـصمـان لم يهتـديا سُنَّـةَ البحثِ عن الحق غبـر

فالجـدال والمـراء على هذا النحـو مجلبـة للعداوة، ومدعاة للتعصب، ومطية لاتباع الهوى.

بل هو ذريعة للكذب، والقولِ على الله بغير علم خصوصاً إذا كان ذلك في مسائل الدين، وهذا أقبح شيء في هذا الباب.

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: «مما يذم من الألفاظ المراء، والجدال، والخصومة.

قال الإمام أبو حامد الغزالي: المـراء طعنك في كلام الغير لإظهار خلل فيه؛ لغير غرض سوى تحقير قائله، وإظهار مزيتك عليه.

قال: وأما الجدال فعبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها.

قال: وأما الخصومة فلجاج في الكلام؛ ليستوفي به مقصوده

من مال أو غيره.

وتارة يكون ابتداءً، وتارة يكون اعتراضاً، والمراء لا يكون إلا اعتراضاً هذا كلام الغزالي». (١)

ثم قال الإمام النووي: «واعلم أن الجدال قد يكون بحق، وقد يكون بباطل، قال الله ـ تعالى ـ: **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾** [العنكبوت: ٤٦].

وقال ـ تعالى ـ: **﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا﴾**[غافر، ٤].

فإن كان الجدالُ الوقوفَ على الحق وتقريره كان محموداً، وإن كان في مدافعة الحق، أو كان جدالاً بغير علم كان مذموماً.

وعلى هذا التفصيل تنزيل النصوص الواردة في إباحته وذمه». (٢)

ثم قال ـ رحمه الله ـ: «قال بعضهم: ما رأيت شيئاً أذهب للدين، ولا أنقصَ للمروءة، ولا أضيع لِلَّذة، ولا أثقل للقلب من الخصومة.

فإن قلت لابد للإنسان من الخصومة؛ لاستبقاء حقوقه ـ فالجواب ما أجاب به الإمام الغزالي أن الذم المتأكد إنما هو لمن خاصم بالباطل أو بغير علم، كوكيل القاضي؛ فإنه يتوكل في الخصومة قبل أن يعرف أن الحق في أي جانب هو فيخاصم بغير علم.

(١) الأذكار ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.
(٢) الأذكار ص ٣٣٠.

ويدخل في الذم ـ أيضاً ـ من يطلب حقه، لكنه لا يقتصر على قدر الحاجة، بل يظهر اللدد، والكذب؛ للإيذاء والتسليط على خصمه.

وكذلك من خلط بالخصومة كلمات تؤذي، وليس إليها حاجة في تحصيل حقه.

وكذلك من يحمله على الخصومة محضُ العناد؛ لقهر الخصم وكسره، فهذا هو المذموم.

وأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد أو إسراف، أو زيادة لجاج على الحاجة من غير قصد عناد ولا إيذاء ـ ففعله هذا ليس حراماً.

ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلاً؛ لأن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر.

والخصومة تُوْغِرُ الصدر، وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب حصل الحقد بينهما حتى يفرحَ كلٌّ واحد منهما بمساءة الآخر، ويحزن بمسرته، ويطلق العنان بعرضه.

فمن خاصم فقد تعرض لهذه الآفات، وأقل ما فيه اشتغال القلب، حتى يكونَ في صلاتِه، وخاطرُه معلق بالمحاجَّة والخصومة، فلا يبقى حاله على الاستقامة.

والخصومة مبدأ الشر، وكذلك الجدال والمراء؛ فينبغي ألا يفتح عليه باب الخصومة إلا لضرورة لابد منها، وعند ذلك يحفظ

لسانه وقلبه من آفات الخصومات» . (١)

ولما كان هذا هو شأن الجدال والمراء والخصومة تجنب السلف ذلك، وحذروا منه، وورد عنهم آثار كثيرة فيه.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «كفى بك ظلماً ألا تزال مخاصماً، وكفى بك إثماً ألا تزال ممارياً» . (٢)

وقال ابن عباس لمعاوية ـ رضي الله عنهما ـ: «هل لك في المناظرة فيما زعمت أنك خاصمت فيه أصحابي؟ .

قال: وما تصنع بذلك؟ أَشْغَبُ بك وتشغب بي، فيبقى في قلبك ما لا ينفعك، ويبقى في قلبي ما يضرك» . (٣)

وقال ابن أبي الزناد: «ما أقام الجدلُ شيئاً إلا كسره جدلُ مثله» . (٤)

وقال الأوزاعي: «إذا أراد الله بقوم شراً ألزمهم الجدل، ومنعهم العمل» . (٥)

وقال الأصمعي: «سمعت أعرابياً يقول: من لاحى الرجال وماراهم قلَّتْ كرامته، ومن أكثر من شيء عُرِف به» . (٦)

وأخرج الآجُرِيُّ بسنده عن مسلم بن يسار ـ رحمه الله ـ أنه

---

(١) الأذكار ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ وانظر إحياء علوم الدين للغزالي ٣/١١٦ ـ ١٢٠ .
(٢) بهجة المجالس ٢/٤٢٩ .
(٣) بهجة المجالس ٢/٤٢٩ ـ ٤٣٠ .
(٤) (٥) (٦) بهجة المجالس ٢/٤٣٠ .

قال: «إياكم والمراءَ؛ فإنه ساعةُ جهلٍ العالم، وبها يبتغي الشيطان زلته». [١]

وأخرج أن عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ قال: «من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل». [٢]

وقال عبدالله بن حسين بن علي ـ رضي الله عنهم ـ: «المراء رائد الغضب؛ فأخزى الله عقلاً يأتيك بالغضب». [٣]

وقال محمد بن علي بن حسين ـ رضي الله عنهم ـ: «الخصومة تمحق الدين، وتنبت الشحناء في صدور الرجال». [٤]

وقيل لعبدالله بن حسن بن حسين: «ما تقول في المراء؟.

قال: يفسد الصداقة القديمة، ويحل العقدة الوثيقة.

وأقل ما فيه أن يكون دريئة للمغالبة، والمغالبة أمتن أسباب القطيعة». [٥]

وقال جعفر بن محمد ـ رحمه الله ـ: «إياكم وهذه الخصوماتِ؛ فإنها تشغل القلب». [٦]

وقال ثابت بن قرة ـ رحمه الله ـ: «إياكم وهذه الخصومات، فإنها تحبط الأعمال». [٧]

وقيل للحكم بن عتيبة الكوفي ـ رحمه الله ـ: «ما اضطر الناس

---

(١) (٢) الشريعة للآجري ص ٥٦، وانظر الحجة في بيان المحجة للأصبهاني ١/ ٢٨٠.

(٣) (٤) (٥) بهجة المجالس ٢/ ٤٢٩.

(٦) (٧) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ١/ ١٢٨ ـ ١٢٩.

إلى هذه الأهواء؟ قال: الخصومات». [١]

وما أجمل قول الشافعي ـ رحمه الله ـ حين قال:

قالوا سكتَّ وقد خوصمتَ قلتُ لهم ... إن الجـوابَ لِبَـابِ الشَّرِّ مفتـاحُ
والصمت عن جاهلٍ أو أحمقٍ شرفٌ ... وفيه أيضاً لصون العرض إصلاحُ
أما ترى الأُسْدَ تُخشى وهي صامتةٌ ... والكلب يُخسى لعمري وهو نباحُ[٢]

٣١ ـ حب المعارضة والمخالفة:

فمن النـاس من هو محب للمعـارضة، كَلِفٌ بالمخالفة، لا يوافق إخوانه على أمر، ولا يسلم لهم بشيء.

فإذا كان في قوم يتبادلون أطراف الحديث أشغلهم بكثرة شغبه واعتراضه.

وهذا المسلك ليس بسديد ولا رشيد؛ إذ المروءة تقتضي موافقةَ المرءِ إخوانَهُ إذا أصابوا، وتسديدهم برفق إذا أخطأوا، وأن يتوقف إذا لم يستبن له الصواب من الخطأ.

فالمـوافقـة وقلة المعارضة تجلب المحبة، وتستديم الألفة، وكثرة المعارضة وقلة الموافقة تستدعي المباغضة، وتقود إلى العداوة.

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ:

أُحِبُّ من الإخوان كلَّ مُواتي ... وكلَّ غضيضِ الطَّرْفِ عن عثراتي
يوافقـني في كلِّ أمـرٍ أقـولُـه ... ويحـفـظني حياً وبـعـد مماتي

(١) الحجة في بيان الحجة ١/ ٢٨٥.
(٢) ديوان الشافعي تحقيق خفاجي ص ٨٨.

فمـن لي بهذا؟ ليت أني لقيتــه   لقاسمته مالي من الحسناتِ[١]

وقــال ابن حزم ـ رحمــه الله ـ: «إياك ومخـالفـةَ الجليس، ومعارضة أهل زمانك فيما لا يضرك في دنياك ولا في آخرتك وإن قل؛ فإنك تستفيد بذلك الأذى، والمنافرة، والعداوة.

وربما أدى ذلك إلى المطالبة والضرر العظيم دون منفعة أصلاً». [٢]

وقـال الخـطابي ـ رحمـه الله ـ محذراً من هذا الأمر: «وقال بعضهم: إن من النـاس من يولع بالخِلاف أبداً، حتى إنه يرى أن أفضل الأمور ألا يوافق أحداً، ولا يجامعه على رأي، ولا يواتيه على محبة.

ومن كان هذا عادتَه فإنه لا يبصر الحق، ولا ينصره، ولا يعتقده ديناً ومذهباً.

إنما يتعصب لرأيه، وينتقم لنفسه، ويسعى في مرضاتها، حتى إنك لو رُمْتَ أن تَتَرَضَّاه، وتوخَّيتَ أن توافقه على الرأي الذي يدعوك إليه ـ تَعَمَّدَ لخلافك فيه، ولم يرضَ به حتى ينتقل إلى نقيض قوله الأول.

فإن عُدت في ذلك إلى وفاقه عاد فيه إلى خلافك.

قال أبـو سليمـان الخـطابي: فمـن كان بهذه الحال فعليك

---

(١) ديوان الشافعي ص ٨٤.

(٢) الأخلاق والسير ص ٦١.

بمباعدته، والنِّفار عن قربه؛ فإن رضاه غايةٌ لا تدرك، ومدى شأوه لا تُلحق» . (١)

ثم أورد ـ رحمه الله ـ أمثلة لذلك، فقال: «أخبرني ابن التِّعْياني، قال: أخبرنا الزَّجاج، قال: كنا عند المبرِّد أبي العباس محمد، فوقف عليه رجل، فقال: أسألك عن مسألة في النحو؟ .

قال: لا، فقال: أخطأت، فقال: يا هذا! كيف أكون مخطئاً أو مصيباً ولم أُجبْك عن المسألة بعدُ؟! .

فأقبل عليه أصحابه يُعَنِّفُونه، فقال لهم: خَلُّو سبيله، ولا تَعَرَّضوا له، أنا أخبركم بقصته؛ هذا رجل يحب الخلاف، وقد خرج من بيته وقصدني على أن يخالفني في كل شيء أقوله، ويخطِّئني فيه، فسبق لسانُه بما كان في ضميره» . (٢)

٣٢ ـ بذاءة اللسان، والتفحش في القول:

فبذاءة اللسان، والتفحش في القول ـ من خوارم المروءة، ومن أمارات القِحَة والصفاقة؛ فالحياء في الكلام يتطلب من المسلم أن يُنـزِّهَ لسانه من الفحش، وأن يُطهِّرَه من البذاءة، وأن يُجِلَّه من ذكر العورات؛ فإن من سوء الأدب أن تفلت الألفاظ البذيئة من المرء غير عابىء بمواقعها وآثارها . (٣)

والمروءة تحفظ لسان صاحبها من أن يلفظ مثلما يلفظ أهل

(١) العزلة للخطابي ص ١٦٦ .
(٢) العزلة للخطابي ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .
(٣) انظر خلق المسلم ص ٨١ .

الخلاعة من سفه القول.

وحذارِ من سَفَهٍ يشينك وصفُه ... إن السفاهَ بذي المروءة زاري[٣]

«وعظماء الرجال يلتزمون في أحوالهم جميعاً ألا تبدر منهم لفظة نابية، ويتحرجون مع صنوف الخلق أن يكونوا سفهاء أو متطاولين»[٢].

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: «ومما ينهى عنه الفحشُ، وبذاءة اللسان.

والأحاديث الصحيحة فيه كثيرة ومعروفة.

ومعناه: التعبير عن الأمور المستقبحة بعبارة صريحة وإن كانت صحيحةً، والمتكلم بها صادقاً.

ويقع ذلك كثيراً في ألفاظ الوِقَاع ونحوها.

وينبغي أن يستعمل في ذلك الكناياتُ، ويعبر عنها بعبارة جميلة يفهم بها الغرض.

وبهذا جاء القرآن العزيز، والسنن الصحيحة المكرمة، قال الله ـ تعالى ـ ﴿**وأُحِلَّ لكم ليلة الصيام الرفثُ إلى نسائكم**﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقال ـ تعالى ـ ﴿**وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض**﴾ [النساء: ٢١].

وقال ـ تعالى ـ ﴿**وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن**﴾ [البقرة: ٢٣٧].

---

(١) انظر رسائل الإصلاح ١/ ٢١١.

(٢) خلق المسلم ص ٨١.

والآيات، والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة.

قال العلماء: فينبغي أن يُستعمل في هذا وما أشبهه من العبارات التي يستحيا من ذكرها بصريح اسمها ـ الكناياتُ المفهمةُ، فَيُكنَّى عن جماع المرأة بالإفضاء، والدخول، والمعاشرة، والوقاع، ونحوها» . [١]

قال: «وكذلك يُكَنَّى عن البول والتغوط بقضاء الحاجة، والذهاب إلى الخلاء، ولا يصرح بالخراءة والبول ونحوهما.

وكذلك ذكر العيوب كالبرص، والبخر، والصنان، وغيرها ـ يعبر عنها بعبارات جميلة، يفهم منها الغرض.

ويلحق بما ذكر من الأمثلة ما سواه» . [٢]

قال القاسمي: «وإياك وما يستقبح من الكلام؛ فإنه يُنَفِّر عنك الكرام، ويُوَثِّب عليك اللئام» . [٣]

وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ليس المؤمن بالطَّعَّان، ولا اللعَّان، ولا الفاحش البذيء**» . [٤]

---

(١) الأذكار للنووي ص ٣٣٤.

(٢) الأذكار ص ٣٣٤.

(٣) جوامع الآداب ص ٦.

(٤) أخرجه أحمد ١/٤٠٤، والترمذي (١٩٧٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٣٢)، والبغوي في شرح السنة (٣٥٥٥)، وابن أبي شيبة ١١/١٨ كلهم عن ابن مسعود، وقال الترمذي «حديث حسن غريب»، وصححه أحمد شاكر في شرحه للمسند (٣٨٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٣٧).

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه**» .[(١)]

ومما يدخل في فحش القول السبُّ، والشتم، واللعن.

ومما يدخل فيه ـ أيضاً ـ ما كان مستنكر الظاهر، وإن كان معناه سليماً بعد تدقيق النظر فيه.

وقال الماوردي ـ رحمه الله ـ: «ومما يجري مجرى فحش القول وهُجْره في وجوب اجتنابه، ولزوم تنكبه ـ ما كان شنيع البديهة، مستنكر الظاهر، وإن كان عقب التأمل سليماً، وبعد الكشف والروية مستقيماً» .[(٢)]

ثم ساق أمثلة لذلك ـ رحمه الله ـ.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه لا ينبغي التصريح بالعبارات القبيحة المستكرهة مالم تَدْعُ حاجةٌ ـ كما مر ـ.

أما إذا ادعت الحاجة للتصريح بصريح الاسم فلا بأس بذلك، بل هو المتعين.

قال النووي بعد أن تحدث عن أنه ينبغي تجنب الفحش وبذاءة اللسان: «واعلم أن هذا كلَّه إذا لم تدعُ حاجةٌ إلى التصريح بصريح

---

(١) أخرجه أحمد ٣/١٦٥، والترمذي (١٩٧٤)، وابن ماجة (٤١٨٥)، والبخاري في الأدب المفرد كلهم عن أنس (٦٠١)، وقال الترمذي «حسن غريب» وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٤٦٩).

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٢٨٤.

اسمه، فإن دعت الحاجة لغرض البيان والتعليم، وخيف أن المخاطب يفهم المجاز، أو يفهم غير المراد ـ صُرِّح حينئذٍ باسمه الصريح؛ ليحصل الإفهام الحقيقي.

وعلى هذا يحمل ما جاء في الأحاديث من التصريح بمثل هذا؛ فإن ذلك محمول على الحاجة كما ذكرنا؛ فإن تحصيل الإفهام في هذا أولى من مراعاة مجرد الأدب، وبالله التوفيق». (١)

٣٣ ـ التّقَعّرُ في الكلام:

التقعر أو التقعير في الكلام هو أن يتكلم المرء بأقصى قعر فمه؛ إظهاراً لفصاحته، وتميزه، وبراعته.

وذلك ممقوت مذموم؛ لما فيه من قصد التكلف البعيد عن الطبع، ولما يحويه من تتبع الوحشي الذي ينفر منه السمع، ولما يتضمنه من التشادق والتعمق والإغراق في القول.

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: «ويكره التقعير في الكلام بالتشدق، وتكلف السجع، والتصنع بالمقدمات التي يعتادها المتفاصحون، وزخارف القول.

فكل ذلك من التكلف المذموم، وكذلك تكلف السجع، وكذلك التحري في دقائق الإعراب، ووحشي اللغة في حال مخاطبة العوام.

بل ينبغي أن يقصد في مخاطبته لفظاً يفهمه صاحبه فهماً جلياً،

(١) الأذكار ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

ولا يستثقله» .[١]

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**وإن أبغضكم إليَّ، وأبعدكم مني في الآخرة - أسوؤكم أخلاقاً الثرثارون، المتفيهقون، المتشدقون**» .[٢]

وقال: «**إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تَخَلَّلُ الباقرة[٣] بلسانها**» .[٤]

وليس معنى ذلك ألا يحرص المرء على حسن منطقه، ورشاقة لفظه، وجودة عبارته، فيلجأ إلى الألفاظ السوقية المبتذلة؛ فراراً من التكلف والتقعير بزعمه.

وإنما المقصود ألا يُغْرِقَ في التكلف فيتعدى حدود الذوق.

وإلا فإن حسنَ المَنْطِقِ، وروعة البيان من مظاهر المروءة الصادقة، ومن أعظم الأسباب الداعية لقبول الحق.

ولهذا قيل: «كلما كان اللسان أبين كان أحمد» .[٥]

بل لقد «ذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ جميل بلائه في تعليم البيان، وعظيم نعمته في تقويم اللسان فقال: ﴿**الرحمن، علم القرآن، خلق**

---

(١) الأذكار ص ٣٣١.

(٢) مضى تخريجه.

(٣) الباقرة: البقرة.

(٤) أخرجه أحمد ٢/١٦٥ ـ ١٨٧، وأبو داود (٥٠٠٥)، والترمذي (٢٨٥٣)، كلهم عن عبدالله بن عمر، وقال الترمذي «حسن غريب» وصححه أحمد شاكر في شرحه للمسند (٦٥٤٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٧١).

(٥) البيان والتبيين للجاحظ ١/١١.

الإنسان، علمه البيان﴾ [الرحمن: ١-٤].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿**هذا بيان للناس**﴾ [آل عمران: ١٣٨].

ومدح القرآن بالبيان والإفصاح، وبحسن التفصيل والإيضاح، وبجودة الإفهام وحكمة الإبلاغ، وسماه فرقاناً، كما سماه قرآناً». [١]

ولهذا يحسن بالخطيب والواعظ أن يُهَذِّب ألفاظه، وأن يُجَمِّل كلامه؛ ليقع موقعه في القلوب، فهذا لا يدخل في المذموم بشرط أن لا يَتَقَصَّد حوشي الكلام، ولا يتعمد التقعير، ولا يتكلف تكلفاً يخرجه عن طوره.

قال الغزالي ـ رحمه الله ـ: «ولا يدخل في هذه[٢] تحسينُ ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط ولا إغراب؛ فإن المقصود منها تحريك القلوب، وتشويقها، وقبضها، وبسطها؛ فلرشاقة اللفظ تأثير فيه؛ فهو لائق به.

فأما المحاورات التي تُجْرى لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع، والتشدق.

والاشتغالُ به من التكلف المذموم، ولا باعث عليه إلا الرياء، وإظهار الفصاحة، والتميز بالبراعة، وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع، ويزجر عنه». [٣]

قال إبراهيم بن المهدي لعبدالله بن صاعد كاتبه: «إياك وتَتَبُّعَ

---

(١) البيان والتبيين ١/٨.

(٢) يعني الأمور المذمومة.

(٣) إحياء علوم الدين ٢/١٢١.

الوحشي من الكلام؛ طمعاً في نيل البلاغة؛ فإن ذلك هو العيُّ الأكبر؛ عليك بما سهل مع تَجَنُّبِكَ ألفاظَ السفل». (١)

وبالجملة فليحرص المرء على تجنب السوقي القريب، والحوشي الغريب، حتى يكون كلامه حالاً بين حالين، كما قال بعض الشعراء:

عليك بأوساط الأمور؛ فإنها نجاةٌ ولا تركب ذلولاً ولا صعبا(٢)

قال أبو هلال العسكري: «وأجود الكلام ما يكون جزلاً سهلاً، لا ينغلق معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكدوداً مستكرهاً، ومُتوعراً مُتَقَعِّراً، ويكون بريئاً من الغثاثة، عارياً من الرثاثة.

والكلام إذا كان لفظه غَثّاً، ومعرضه رثّاً كان مردوداً ولو احتوى على أجلِّ معنىً وأنبله وأرفعه وأفضله». (٣)

ومن هنا يتبين لنا أن المذموم من الكلام إنما هو ما كان متكلفاً ومشتملاً على التقعير.

أما حسن المنطق وجمال العبارة، ورشاقة الألفاظ فمحمود مرغوب فيه، خصوصاً إذا كان في بيان الحق.

نظر معاوية إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فأتبعه بصره، ثم قال متمثلاً:

إذا قال لم يترك مقالاً لقائلٍ مصيب ولم يَثْنِ اللسانَ على هُجْرِ

---

(١) العمدة لابن رشيق ٢/٢٦٦.
(٢) العمدة ١/١٩٩ وانظر البيان والتبيين ١/٢٥٥.
(٣) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٦٧.

يُصَرِّف بالقول اللسان إذا انتحى   وينظر في أعطافه نظرَ الصَّقْرِ[١]

ولحسان بن ثابت في ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ:

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل   بمنطلقات لا ترى بينها فصلا
شفى وكفى ما في النفوس فلم يدع   لذي إِرْبَةٍ في القول جداً ولا هزلا[٢]

قال ابن عبدالبر ـ رحمه الله ـ: «ومن أحسن ما قيل في مدح البلاغة من النظم ـ قول حسان بن ثابت في ابن عباس:

صموتٌ إذا ما الصمت زيَّنَ أهله   وفَتَّاقُ أبكارِ الكلام المخَتَّمِ
وعى ما وعى القرآن من كلِّ حكمةٍ   ونِيطت له الآداب باللحم والدمِ»[٣]

٣٤ ـ الخوض فيما لا طائل تحته:

فأكثر الناس لا يكاد ينقطع لهم كلام، ولا تهدأ لألسنتهم حركة، فإذا ذهبت تحصي ما قالوا وجدت جلَّه لغواً ضائعاً، أو هذراً ضاراً، لا يقدم ولا يؤخر، ولا يسمن ولا يغني من جوع، بل هو إلى الضرر أقرب منه إلى النفع.

فما القضايا التي تطرح، وما الموضوعات التي تطرق؟.

إنك لو أجَلْتَ النظر في مجالس الناس، وأصخت السمع لأحاديثهم ـ لوجدت أن جُلَّ حديثهم واهتمامهم إنما هو بطرح قضايا باردة، أو بطرق موضوعات تافهة، تَنِمُّ عن همم دانية، وعقول خاوية، لا تَخْطِبُ المعالي، ولا تنشد الكمالات، بل تدور حول الصغائر

(١) (٢) بهجة المجالس ١/٥٨، والتمهيد لابن عبدالبر ٥/١٧٩.
(٣) التمهيد ٥/١٧٨.

والسفاسف والمحقِّرات.

فتارة يتحدثون عن الرياضة ومن فاز، ومن هُزِم، ومن أُصيب من اللاعبين ومن شُفي؟.

وتارة عن الفن وأخبار أهله، وقراءة مذكراتهم، ومتابعة آخر أعمالهم.

وإن سَمَتْ تلك المجالس قليلاً أغرقت بالحديث عن حطام الدنيا، وعن المصالح الخاصة فحسب.

وإلا مُلئت بِتَسَقُّط الأخبار، وتتبع العيوب، ونحو ذلك.

فما لهذا رُكِّبت الألسنة في الأفواه، ولا بهذا تُقدَّر نعمة اللسان وموهبة البيان.

لقد أنعم الله على الإنسان بتلك النعمة، وكَرَّمه بها على سائر المخلوقات.

وعلى قدر جلال النعمة يعظم حقُّها، ويستوجب شُكْرُها، ويستنكر كنودها.(١)

ولقد بين الإسلام كيف يستفيد الناس من هذه النعمة المسداة، وكيف يجعلون كلامهم الذي يتردد على الألسنة طريقاً إلى الخير المنشود، بدلاً من شغله بما لا ينفع أو ربما ضر.

قال الله ـ تعالى ـ: **﴿لا خير في كثيرٍ من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾** [النساء: ١١٤].

(١) انظر خلق المسلم ص ٧٧.

فأولى ثم أولى لتلك المجالس أن تشغل بما ينفع، ولتلك الألسنة أن تلهج بما يعود على أصحابها بالفائدة، وذلك بالتواصي بالبر والتقوى، وبالأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس، أو بالحديث عن مسائل العلم التي يُصَحِّحَ بها الإنسان عقيدته وعمله، أو بالحديث عن أخبار المسلمين في أنحاء المعمورة، وبيان ما يصيبهم من البأساء واللأواء؛ حتى تنبعث القلوب للتعاطف معهم، وبذل ما يستطاع من مال، أو دعاء، أو نحو ذلك مما يعود بالفائدة في الدنيا والآخرة.

أو أن تشتمل على أخبار الكرام، والشجعان، وذوي المروءات، ونحو ذلك مما يجمع إلى جانب المتعةِ الفائدةَ.

٣٥ ـ كثرة التلاوم:

وهذا دأب كثير من الناس، فتراهم في اجتماعاتهم، ومنتدياتهم، وأحاديثهم ـ يقضون الساعاتِ الطوالَ في التلاوم، وذم الأوضاع، وانتقاد الآخرين، والتشدق بمعالي الأمور دون سعي لها.

قال العلامة محمد الخضر حسين ـ رحمه الله ـ: «فإذا رأيت قوماً يذكرون في صبحهم ومسائهم شيئاً من معالي الأمور، ولم تَرَهُم يسعون له سعيه، ولا يتقدمون إليه بخطوة ـ فاعلم أن العزم لم يأخذ من قلوبهم مأخذه، فهم إما أن يكونوا عن حقيقته وشرف غايته غائبين، وإما أنهم ضلوا طريقه وما كانوا مهتدين». (١)

(١) رسائل الإصلاح ١/٦٨.

وإذا كان الأمر كذلك فإن تحقيق الأماني، وبلوغ الغايات لا ينال بكثرة التلاوم، ولا باجترار الأحزان على الماضي، والندم على ما فات؛ فهذا ضرب من البطالة.

وإنما يكون بالجد، والعمل، وترك التواني والكسلِ، واغتنام كل فرصة يُتَقدم بها نحو الأمام خطوة، فهذا آية الكَيْسِ، وعنوان الحزم.

٣٦ ـ كثرة الشكوى إلى الناس:

فما أكثر ما يرى مَنْ ديدنُهُ وهجيراه الشكوى إلى الناس، وكثرة التسخط.

فلا يعجبه أحد، ولا يروقه شيء.

فإذا ما جلس مجلساً بثَّ شكاته إلى جُلَّاسه، وآذاهم بكثرة اعتراضه وتسخطه.

فتراه يشكو فقره، وأولاده، وزوجته، ودابته، ومزرعته، وعمله، ومديره، ومن تحت يده، وربما شكى الحر والقر وهكذا...

فهذا الصنيع دليل على ضعة النفس، وسقوط الهمة، وقلة التحمل.

ثم إنه مدعاة لكراهية الناس لذلك الشخص، وتكذيبهم لحديثه، بل ربما أظهروا له الشماتة، وفرحوا بمصابه.

ثم إنه هذا العمل يُسَوِّغ للمرء إخفاقه، وعجزه، وكسله، فلا يسعى لتكميل نفسه، وإصلاحِ عيوبه.

فاللائق بالمسلم العاقل أن يخزن عليه لسانه، وأن يتحلى

بالصبر الجميل، الذي لا جزع فيه ولا شكوى، وألا يشكو إلا إلى ربه، وألا ينزل حاجاته إلا ببابه؛ فالناس لا يملكون له ضراً ولا نفعاً.

ولهذا «رأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقته وضرورته ـ فقال: يا هذا، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك». (١)

وإذا شكوتَ إلى ابنِ آدمَ إنَّما تشكو الرحيمَ إلى الذي لا يرحمُ

٣٧ ـ كثرة الحديث عن النساء:

وليس المقصود ههنا ما يدور في مجال الخنا، والفسق، والفجور من تشبيب، ومجون، وخلاعة سافرة؛ فلهؤلاء حديث آخر.

وإنما المقصود في هذا المقام ما يدور في بعض المجالس العامة، وربما كان ذلك في بعض مجالس الفضلاء ممن يتوسم فيهم الخير، والديانة، والمروءة.

فتجد أن تلك المجالس تعمر بذكر النساء، ويُكْثِرُ مرتادوها من الحديث عنهن.

وربما كانت تلك المجالس ميداناً للتنافس، والتفاخر، والتحدي؛ فهذا يفاخر بأنه قد عدَّد، وهذا يتحدى صاحبه بأن يتزوج بثانية، وهذا يزري بالآخرين؛ لاقتصارهم على واحدة.

بل ربما تمادى بهم الأمر، فتعمقوا في ذكر النساء، وأغرقوا في وصف محاسنهن، وأصبح ذلك دَأْبَهُمْ وديدنهم، بل ربما كان ذلك

(١) الفوائد لابن القيم ص ١٣١.

بحضرة الصبيان والسفهاء.

قال الأحنف بن قيس ـ رحمه الله ـ: «جنِّبوا مجالسنا ذكر النساء والطعام؛ إني أبغض الرجل يكون وصَّافاً لفرجه وبطنه». (١)

وليس المقصود من هذا أن يُمْنَعَ الحديثُ عن النساء بإطلاق، ولا أن يُثَرَّبَ على من يلم بالحديث عنهن لماماً، وفي أحايين متفرقة، وأوقات مناسبة.

وإنما المقصود ألا يكون ذلك سمة في المرء، وديدناً وعادة له، يتحدث به عند كل أحد، بمناسبة وبغير مناسبة؛ فكمال المروءة ألا يكثر المرء من الحديث عن النساء على نحو ما سبق؛ لأن في كثرة الحديث عنهن خدشاً للمروءة، وإسقاطاً للهيبة، وإضاعة للوقت، واشتغالاً عما هو أولى وأحرى.

٣٨ ـ كثرة الهزل:

فهناك من الناس من يغلب عليه طابع الهزل، فلا يعرف للجد سبيلاً، ولا لمعالي الأمور طريقاً.

فإذا جلس مجلساً أضفى عليه ما أضفى من هزله، وتخاذله، ورخاوته، وملأه بهزئه، وسخريته، وكلامه السمج الذي يسمونه «التنكيت» الخارج عن حدود الأدب واللياقة؛ فإن هؤلاء المُنَكِّتين ينالهم الذل والصغار، واحتقار العقلاء لهم، فيكبرون وهم الأصغرون. (٢)

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٩٤.
(٢) انظر جوامع الآداب ص ٢٧.

وليس معنى ذلك أن ينقبض المرء في مجلسه، وأن يثقل على من حوله ـ بقدر ما هي دعوة لتخليص تلك المجالس من أن تتمحض للهزل.

ومن أمثال العرب السائرة قولهم: «الانقباض عن الناس مَكْسَبَةٌ للعداوة، والإفراط في الأنس مكسبة لقرناء السوء». (١)

٣٩ ـ كثرة المزاح:

وهذا الأمر قريب من سابقه، فبعض الناس يغلب عليه كثرة المزاح، وربما أسفَّ فيه، ومزح مع من لا يرغب في المزاح.

وهذا الأمر لا ينبغي؛ فالمزاح يسقط الهيبة، ويخل بالمروءة، ويُجَرِّئُ السفهاء، ويستجلب العداوات.

قيل في بعض منثور الحكم: «المزاح يأكل الهيبة كما تأكل النارُ الحطب». (٢)

وقال بعض الحكماء: «من كثر مزاحُه زالت هيبتُه». (٣)

وقال الإمام ابن عبدالبر ـ رحمه الله ـ: «وقد كره جماعة من العلماء الخوض في المزاح؛ لما فيه من ذميم العاقبة، ومن التوصل إلى الأعراض، واستجلاب الضغائن، وإفساد الإخاء». (٤)

وقال ميمون بن مهران: «إذا كان المزاح أمام الكلام فآخره الشتم واللطام». (٥)

---

(١) الأمثال لأبي عبيد ص ٢٢٠.

(٢) (٣) أدب الدنيا والدين ص ٣١٠.

(٤) بهجة المجالس ٢/٥٦٩.

(٥) الآداب الشرعية لابن مفلح ٢/٢٢٣.

وقال أبو هفان:

مازِحْ صديقَك ما أحبَّ مزاحاً ... وتوقَّ منه في المزاح جِماحَا
فلربما مزح الصديقُ بمزحةٍ ... كانت لبابِ عداوةٍ مفتاحا(١)

وقال ابن وكيع:

لا تمزحنَّ فإن مزحت فلا يكن ... مزحاً تضافُ به إلى سوء الأدب
واحذر ممازحةً تعود عداوةً ... إن المزاحَ على مقدمة الغضب(٢)

ولأبي جعفر محمد بن جرير الطبري:

لي صاحبٌ ليس يخلو ... لسانُه عن جراح
يجيد تمزيقَ عرضي ... على سبيل المزاح(٣)

وقال مسعر بن كدام الهلالي يوصي ابنه كداماً:

إني مَنَحْتُكَ يا كدامُ نصيحتي ... فاسمع لقول أبٍ عليك شفيقِ
أما المزاحةُ والمراءُ فَدَعْهُما ... خُلُقَانِ لا أرضاهما لصديقِ
إني بلوتُهما فلم أحمَدْهما ... لمجاورٍ جارٍ ولا لصديقِ
والجهل يزري بالفتى في قومه ... وعروقُه في الناس أي عروقِ(٤)

وقال محمد الخضر حسين: «والمروءة تنادي صاحبها أن يسود مجلسه الجد والحكمة، وأن لا يلم بالمزاح إلا إلماماً مؤنساً في أحوال نادرة.

(١) بهجة المجالس ٢/ ٥٧٠.
(٢) بهجة المجالس ٢/ ٢٧٠.
(٣) بهجة المجالس ٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧١.
(٤) بهجة المجالس ٢/ ٤٣٠ ـ ٤٣١.

ووجه ذلك أن الذي يسرف في المزاح يكثر منه الوقوع في لغو الحديث، ولا يخلو أن تصدر منه كلمات تؤذي بعض جلسائه.

وكمال الإنسانية لا يلتقي بلغو الحديث، أو إيذاء بعض الإخوان في مجلس». [١]

والمقصود أن المزاح لا ينبغي الإكثار منه، ولا الإسفاف فيه.

أما ماعدا ذلك فيحسن؛ لما فيه من إيناس الجليس، وإزالة الوحشة، ونفي السآمة.

وإنما المزاح في الكلام كالملح في الطعام إن عُدِمَ أو زاد على الحد فهو مذموم.

أَفِدْ طَبْعَكَ المكدودَ بالجد راحةً ... يَجِمَّ وعَلِّلْه بشيء من المزحِ
ولكن إذا أعطيتَه المزحَ فليكن ... بمقدار ما تعطي الطعامَ من الملحِ [٢]

٤٠ ـ كثرة الحلف:

فمن الناس من يجري الحلف على لسانه كثيراً بمناسبة وبدون مناسبة.

فإذا تحدث إلى أحد بحديث أكثر من الحلف، ولو لم يطلب منه ذلك.

وإنما يحلف لجريان ذلك على لسانه، أو لأنه يريد تأكيد كلامه؛ ليجد قبولاً في قلوب السامعين.

---

(١) رسائل الإصلاح ١/٢١٢.
(٢) أدب الدنيا والدين ص ٣١١.

وربما كانت تلك الحلفةُ حِلفةَ فاجرٍ لا يبر فيها ولا يصدق.

فينبغي للمسلم أن يتجنب كثرة الحلف ولو كان صادقاً؛ ذلك أن كثرة الحلف تدل على قلة وقار الله في قلب العبد.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**واحفظوا أيمانكم**﴾ [المائدة: ٨٩].

فحفظ اليمين، وقلة الحلف دليل على تعظيم الله ـ عز وجل ـ.

بل إن ذلك من مقومات المروءة، ومما يتمدح به حتى عند أهل الجاهلية.

قال أحد الشعراء يمدح رجلاً:

قليل الألايا حافظ ليمينه   وإن بدرت من الأليَّةُ بَرَّتِ

والألايا جمع أليَّة، والأليَّةُ بالتشديد هي اليمين.

«وقال بكار السيريني: صحبت ابن عون دهراً فما سمعته حالفاً على يمين بَرَّةٍ ولا فاجرة». (١)

أما إذا احتاج المسلم إلى اليمين أو طلبت منه ـ فلا بأس في ذلك.

٤١ ـ تتبع عثرات الجليس:

فهناك من إذا جلس إليه أحد من الناس، ثم شرع في حديث ما ـ بدأ بتتبع عثراته، وتصيد زلاته؛ فما أن ينبس المتحدث بكلمة عوراء أو نحوها ـ إلا ويحفظها، ويتروَّاها، ويُذكِّره بها بين الفينة والأخرى.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/٣٦٦.

ومن هنا تجد أن الناس ينفرون من ذلك الشخص، ويتحفظون من الكلام معه في أي أمر.

وليس ذلك الفعل من المروءة في شيء، بل المروءة تقتضي أن يتعامى المرء عن عيوب جليسه، وأن يتغاضى عما يصدر منه من خطل أو زلل؛ ليحفظ على جليسه كرامته وعزته.

ثم إن رأى منه أمراً يستوجب التنبيه نبهه بلطف وأدب دون أن يخدش كرامته.

قال بعضهم يمدح قوماً:

وأحلامُ عادٍ لا يخاف جليسُهم ... إذا نطق العوراءَ غربُ لسان

إذا حُدِّثوا لم يخش سوءُ استماعهم ... وإن حَدَّثوا أدَّوا بحسن بيان(١)

وقال آخر:

جليسٌ لي أخا ثقةٍ ... كأن حديثه خبره

يَسرُّكَ حسنُ ظاهرهِ ... وتحمد منه مختصره

ويستر عيبَ صاحبه ... ويستر أنه ستره(٢)

٤٢ ـ إظهار الملالة من الجليس:

فهناك من الناس من هو ضَيِّقُ العطن، كثير الملالة، فإذا ما جلس إليه أحد أظهر الانقباض، وأبدى الضجر، ولم يتحدث إلى جليسه إلا على سبيل الاختصار.

---

(١) المنتقى من مكارم الأخلاق ص ١٤٨.

(٢) بهجة المجالس ١/ ٤٥.

وإذا أقبل إليه أحد، وتَقَصَّده ليجالسه ـ لم يَتطَلَّقْ له، ولم يفرح بمقدمه، بل ربما قابله بالإشاحة والصدود، وبالاكفهرار والعبوس.

وهذا الخلق مما يتنافى مع المروءة؛ إذ المروءة وكمال الأدب يقتضيان أن يتطلق المرء لجليسه، وأن يظهر له الفرح، وأن يلاطفه بحسن الحديث، ويشكره على تفضله ومجيئه؛ فلجليسك ومن يَتَقَصَّدك حق ومكانة.

وكرامُ الناس وساداتهم يقضون هذا الحق، ويكرمون جليسهم ومن يقصدهم حق التكرمة، فيرفعون من قدره، ويعلون من منزلته، ولا يرضون أن يهان أو ينال بمكروه ما دام في حضرتهم.

«والعرب تجعل الحديث، والبسط، والتأنيس، والتلقي بالبِشْر ـ من حقوق القِرى، ومن تمام الإكرام.

وقالوا: من تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة، وإطالة الحديث عند المؤاكلة». [1]

قال حاتم الطائي:

سلي الجائعَ الغرثان يا أمَّ منذرٍ ... إذا ما أتاني بين ناري ومجزري
هَلَ ابْسط وجهي إنه أَوَّلُ القِرى ... وأبذل معروفي له دون منكري[2]

وقال مسكين الدارمي:

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ١٠.
(٢) البيان والتبيين ١/ ١٠، ولم أجدها في ديوان حاتم.

لحافي لحافُ الضيف والبيتُ بيتُه ولم يلهني عنه غزالٌ مُقَنَّعُ[١]
أحدثُه إن الحديثَ من القِرى وتعلم نفسي أنه سوف يهجع[٢]

وقال الآخر:

وإني لطلقُ الوجهِ للمبتغي القِرى وإن فنائي للقِرى لرحيبُ
أضاحك ضيفي قبل إنزالِ رحلهِ فيخصب عندي والمكان جديبُ
وما الخصبُ للأضيافِ أن يكثر القرى ولكنما وجهُ الكريمِ خصيبُ[٣]

وقيل للأوزاعي ـ رحمه الله ـ: «ما إكرام الضيف؟

قال: طلاقة الوجه، وطيب الكلام». [٤]

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ:

«أَعَزُّ الناسِ عليَّ جليسي، الذي يتخطى الناس إليَّ، أما والله إن الذباب يقع عليه فيشق عليَّ!». [٥]

«وعن ابن عباس أنه سئل: من أكرم الناس عليك؟.

قال: جليسي حتى يفارقني». [٦]

---

(١) غزال مقنع: يعني به الزوجة.

(٢) البيان والتبيين ١/١٠ ويروى البيت: طعامي طعام الضيف والرحل رحله. . . قال ابن عبدالبر: «قالوا وهو أحسن شيء في الضيافة». انظر بهجة المجالس ١/٢٩٦.

(٣) روضة العقلاء ص ١٦١ ـ ١٦٢.

(٤) روضة العقلاء ص ١٦١.

(٥) عيون الأخبار ١/٣٠٧ وأدب المجالسة ص ٣٣ وبهجة المجالس ١/٤٥.

(٦) بهجة المجالس ١/٤٦ وأدب المجالسة ص ٣٣.

«وقال معاوية ـ رضي الله عنه ـ لعرابةَ الأوسيِّ: بِمَ استحققت أن يقول فيك الشماخ:

رأيت عُرَابَـةَ الأوسيَّ يسـمـو إلى الخـيرات مُنْقَـطِعَ القـرينِ
إذا ما رايةٌ رُفِـعَـتْ لِمَجْـدٍ تَلَقَّـاهـا عُرابـةُ باليـمـينِ

فقال عرابةُ: هذا من غيري أولى بك يا أميرَ المؤمنين.

فقال: عزمت عليك لتخبرني.

فقال: بإكرامي جليسي، ومحاماتي على صديقي.

فقال: إذاً استحققت» .[1]

وقال الأحنف: «لو جلست إلى مائة لأحببت أن ألتمس رضى كل واحدٍ منهم» .[2]

«وكان القعقاع بن شور إذا جالسه رجل، فعرفه بالقصد إليه ـ جعل له نصيباً من ماله، وأعانه على عدوه، وشفع له في حاجته، وغدا إليه بعد المجالسة شاكراً» .[3]

ولقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكرم الناس لجلسائه، فقد كان يعطي كل واحد من جلسائه نصيبه، ولا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه .[4]

(١) أدب المجالسة ص ٣٤ وبهجة المجالس ١/٤٦.
(٢) بهجة المجالس ١/٤٥.
(٣) عيون الأخبار ١/٣٠٦.
(٤) انظر دلائل النبوة لأبي نعيم ص ٥٥٥.

٤٣ ـ تكليف الرّجُل جُلاسَه بخدمته:

فبعض الناس إذا زاره أحد فجلس إليه ـ أخذ يأمره، وينهاه، ويكلفه ببعض الأعمال.

وهذا الصنيع ليس من المروءة في شيء؛ إذ المروءة تقتضي القيام بخدمة الزائر، والمبالغة في إكرامه.

قال المقنع الكندي:

وإني لعبدُ الضيفِ ما دام نازلاً   وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا[١]

وقال ابن حبان: «ومن إكرام الضيف طيب الكلام، وطلاقة الوجه، والخدمة بالنفس؛ فإنه لا يذل من خدم أضيافه، كما لا يعز من استخدمهم، أو طلب لقراه أجراً». [٢]

«ومن الاحتفاظ بالمروءة أن يتجنَّب الرجل تكليف زائريه ولو بعمل خفيف، كأن يكون بالقرب من الزائر كتاب فيطلب منه مناولته إياه، أو أن يكون بجانبه الزر الكهربائي فيشير إليه بالضغط عليه؛ لإنارة المنزل». [٣]

أو أن يأمره بإدارة أقداح الشاي على الضيوف، أو نحو ذلك.

«قال عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز: قال لي رجاء بن حيوة: ما رأيت رجلاً أكمل أدباً، ولا أجمل عشرةً من أبيك؛ وذلك أني سهرت معه ليلة، فبينما نحن نتحدث إذ غشي المصباح، وقد نام الغلام،

(١) بهجة المجالس ٢/ ٧٨٥.

(٢) روضة العقلاء ص ٢٦١.

(٣) رسائل الإصلاح ١/ ٢١١.

فقلت له: يا أمير المؤمنين، قد غشي المصباح، أفنوقظ الغلام؛ ليصلح المصباح؟.

فقال: لا تفعل.

فقلت: أفتأذن لي أن أصلحه؟.

فقال: لا؛ لأنه ليس من المروءة أن يستخدم الإنسان ضيفه، ثم قام هو بنفسه، وحط رداءه عن منكبيه، وأتى إلى المصباح فأصلحه، وجعل فيه الزيت، وأشخص الفتيل، ثم رجع وأخذ رداءه، وجلس، ثم قال: قمت وأنا عمر بن عبدالعزيز، وجلست وأنا عمر ابن عبدالعزيز». (١)

أما إذا قام الزائر وتكرّم بخدمة مزوره فلا بأس في ذلك، خصوصاً إذا كان المزور له حق، أو كان من أهل الفضل والعلم والتقى.

٤٤ ـ تناجي الاثنين دون الواحد:

فليس من الأدب إذا ضم مجلس ثلاثة أن يتهامس اثنان دون الثالث؛ لأن ذلك يحزنه، ويوحشه، ويجرح شعوره، ويصيبه بالضيق من جَرَّاء جلوسه ساكتاً وحده.

وقد تخالجه الرِّيَبُ، وتساوره الظنون، فيظن أنهما ينهشان في عرضه، أو يحطان من قدره، أو يكيدان له مكيدة، فيقوم من المجلس مُوْغَرَ الصدر، محزون القلب.

---

(١) عين الأدب والسياسة ص ١٢٤.

فللإبقاء على المودة، والمحافظة على الألفة مُنَعت مناجاة الاثنين دون الثالث إلا أن يستأذناه فيأذن، فلا حرج إذاً؛ لأن المنعَ حَقُّه، فيستباح بإذنه.

وكذلك الحكم لو تناجى ثلاثة من دون رابع، أو أربعة من دون خامس، أو خمسة من دون سادس أو أكثر من ذلك؛ لتحقق علة النهي في ذلك كله.

بل العلة هنا أشد تحققاً؛ فإن انفراد جَمْعٍ بالمناجاة من دون واحد أشدُّ إيغاراً لصدره؛ فبدل أن يكون النفور من شخصين يكون من أكثر؛ فالأمر إذاً أعظم، فكان بالمنع أجدر.

ويقاس على ذلك ما إذا كان الحديث بين اثنين دون الثالث بِلُغَةٍ لا يفهمها الثالث.[(١)]

خصوصاً إذا كان الاثنان يستطيعان الكلام بلغة يفهمها الثالث.

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس؛ أجل إن ذلك يحزنه**».[(٢)]

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «قال الخطابي: وإنما قال: يحزنه؛ لأنه قد يتوهم أن نجواهما إنما هي لسوء رأيهما فيه، أو لدسيسة غائلة له».[(٣)]

---

(١) انظر الأدب النبوي لمحمد الخولي ص ١٧٦ ـ ١٧٧، وأدب المسلم لمحمد مبيض ص ٥٤.

(٢) رواه البخاري ٧/١٤٢.

(٣) فتح الباري ١١/٨٦.

وقال ابن حجر: «وقد نقل ابن بطال عن أشهب عن مالك قال: لا يتناجى ثلاثة دون واحد، ولا عشرة؛ لأنه قد نُهي أن يترك واحداً.

قال ابن بطال: وهذا مستنبط من حديث الباب؛ لأن المعنى في ترك الجماعة للواحد كترك الاثنين للواحد.

قال: وهذا من حسن الأدب لئلا يتقاطعوا». (١)

قال ابن حجر: «قال المازري ومن تبعه: لا فرق في المعنى بين الاثنين والجماعة؛ لوجود المعنى في حق الواحد.

زاد القرطبي: بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأشد؛ فليكن المنع أولى.

وإنما خص الثلاثة بالذكر؛ لأنه أول عدد يتصور فيه ذلك المعنى، فمهما وجد المعنى فيه ألحق به في الحكم». (٢)

٤٥ ـ القيام بما ينافي الذوق في المجالس:

فالمجالس لها احترامها وحقها، فلا يحسن بالمرء أن يصدر منه ما ينافي الذوق فيها، وما يبعث على الكراهة والاشمئزاز.

وذلك كأن يَتَجَشَّأَ في المجلس، أو أن يتثاءب، أو يَتَمَخَّط، أو يبصق في حضرة غيره.

ومن هذا القبيل تخليل الأسنان، وإدخال الأصبع في الأنف، وكثرة التنحنح، والقهقهة، والتمطي، والعبث بالشارب أو اللحية،

---

(١) (٢) فتح الباري ١١/٨٦.

ونحو ذلك. [١]

فالـذي يليق بالمرء إذا جلس في المجلس أن يكون ذا هيبة وأدب ووقار؛ فذلك أكمل لأدبه، وأدعى لاحترامه وتبجيله.

ولئن كان هذا الأدب حسناً مطلوباً في كل مجلس ـ فَلَهْو في مجالس العلماء والأكابر أولى وأحرى. [٢]

٤٦ ـ مزاولة المنكرات في المجالس:

فكمـا أنـه لا يحسن القيام بما ينافي الذوق في المجالس ـ فكـذلـك لا يجوز مزاولة المنكرات فيها، كشرب الدخان، وسماع الأغاني، ومشاهدة المحرمات من أفلام خليعة ونحوها.

وكالغيبة والنميمة، والاستهزاء بالدين، وبعباد الله الصالحين ونحو ذلك.

فهـذه المجـالس مجـالس زور وخنـا لا يجوز شهودها، ولا السكوت عما يدور فيها لمن حضرها.

٤٧ ـ حضور مجالس اللغو ومداهنة أهلها:

فهناك من الناس من يحضر مجالس اللغو والزور، وفيه بقية من خير؛ فلا يشارك أهل المجلس في منكرهم ولغوهم، ولكنه لا ينكر عليهم ما هم فيه، ويظن أنه في منجى من الإثم؛ لأنه لم يشاركهم في زعمه!.

---

(١) انظر تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لمسكويه ص ٧٢، وجوامع الآداب ص ١١.

(٢) انظر تذكرة السامع والمتكلم ص ١٤٨ ـ ١٥٠.

وهـذا خطأ شنيع؛ إذ لا يجوز للمرء أن يشهد مجالس اللغو والخنا والزور ـ كما مر ـ إلا إذا كان سينكر عليهم، أما إذا سكت عنهم فقد وقع في المداهنة المحرمة.

بل إن حضوره وسكوته عن المنكر خطر على من يزاولونه؛ فقد يظنون أن سكوته عنهم إنما هو إقرار لهم، ورضاً عما يصدر منهم.

فهذه هي المداهنة المذمومة، والتي أصلها من الدهان، وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه.

وحقيقتها إظهار الرضا بما يصدر من الظالم أو الفاسق من قول باطل، أو عمل مكروه.

فهي بلادة في النفس، واستكانة للهوى، وقبول لما لا يرضى به ذو دين أو عقل أو مروءة.

هذه هي المداهنة، فلا تلبس بالمداراة؛ إذ المداراة محمودة مرغوب؛ فيها فهي من أخلاق المؤمنين.

وحقيقتها أنها ترجع إلى حسن اللقاء، وطيب الكلام، والتودد للناس، وتجنب ما يشعر بغضب أو سخط أو ملالة، كل ذلك من غير ما ثلم للدين في جهة من الجهات.(١)

قال ابن بطال ـ رحمه الله ـ: «المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس، وترك الإغلاظ في القول، وذلك من

(١) انظر روضة العقلاء ص ٧٠ ـ ٧١ وفتح الباري ١٠/٥٤٤ ـ ٥٤٥ ورسائل الإصلاح ١/١٣١ ـ ١٣٨، وسوء الخلق مظاهره ـ أسبابه ـ علاجه ص ١١٩ ـ ١٢٨.

أقوى أسباب الألفة» . [1]

فمن المداراة المحمودة أن تغشى تلك المجالس بِنِيَّة الإصلاح، وتغيير المنكر، أو تخفيف الشر، فتأخذ بسنة المداراة، فتتلطف مع أهل المجلس، وتنكر عليهم برفق، وتأخذ بأيديهم إلى ما فيه نجاتهم وسلامتهم، مراعياً بذلك الحكمة، متجنباً ما يشعر بغضبهم أو ملالتهم.

فهذا العمل محمود مبرور، وأنت فيه مأجور غير مأزور.

فإذا ما رأيت منهم إعراضاً عن الحق، وتمادياً في الضلالة والغواية، أو لمست منهم عناداً وجماحاً وتعنتاً، أو خشيت على نفسك من سلوك سبيلهم، والانحدار في حضيضهم ـ فالسلامةَ السلامةَ، والنجاءَ النجاءَ.

٤٨ ـ الجلوس على هيئة تشعر بقلة الأدب:

فليس من الأدب أن يجلس المرء جلسة استهتار بالآخرين، كأن يضطجع وهم جلوس إلا لعذر، أو أن يضع رجله في مواجهتهم أو نحو ذلك. [2]

وتتأكد مراعاة هذا الأدب حال الجلوس إلى العلماء؛ فيحسن بالمرء أن يجلس إليهم بتواضع، وسكون، وتعقل، ورزانة. [3]

---

(١) فتح الباري ١٠/٥٤٥.

(٢) انظر أدب المسلم ص ٥٣.

(٣) انظر تذكرة السامع والمتكلم ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

٤٩ ـ الجلوس وسط الحلقة:

وهذا مما ينافي الأدب في المجالس.

قال الترمذي: «**حدثنا سويد أخبرنا عبدالله، أخبرنا شعبة عن قتادة عن أبي مجلز أن رجلاً قعد وسط الحلقة، فقال حذيفة: ملعون على لسان محمد، أو لعن الله على لسان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قعد وسط الحلقة**»(١).

٥٠ ـ التفريق بين اثنين متجالسين دون إذنهما:

فهـذا العمـل ممـا يشعر بقلة الأدب، وقلةِ المراعاة لمشاعر الآخرين، فقد يقطع حديثاً كان متصلاً بين اثنين، وقد يحرم صاحباً من محادثة صاحبه، وقد يثقل على المتجالسينِ بجلوسه بينهما ونحو ذلك. . .

فهذا كله مما يولد الكراهية والمعاداة، ولأجل ذلك نُهي عن هذا العمل؛ حفاظاً على استبقاء روح المودة بين المسلمين.

أما إذا أذن الجالسان أن يُجلس بينهما فلا بأس بذلك.

فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**لا يحل للرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما**»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد ٥/٣٨٤ ـ ٣٩٨، وأبو داود (٤٨٢٦)، والترمذي (٢٧٥٣)، والحاكم ٤/٢٨١ كلهم عن حذيفة، وقال الترمذي «حسن صحيح»، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٦٩٧).

(٢) أخرجه أحمد ٢/٢١٣، وأبو داود (٤٨٤٥)، والترمذي (٢٧٥٢) عن عبدالله =

٥١ ـ إقامة الرجل من مجلسه والجلوس مكانه:

فلا يليق بالرجل أن يقيم أحداً من مجلسه ثم يجلس فيه؛ لما في ذلك من الكبر والتعالي، والإزراء بالآخرين.

ولهذا مُنع أن يقيم الرجل أخاه من مجلسه؛ ليجلس فيه؛ حرصاً على علاقة المسلمين ببعض أن تشوبها شائبة.

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه**». (١)

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في شرح هذا الحديث: «قال ـ يعني ابن أبي جمرة ـ: والحكمة من هذا النهي منع استنقاص حق المسلم المقتضي للضغائن، والحث على التواضع المقتضي للمودة، وأيضاً فالناس في المباح كلهم سواء، فمن سبق إلى شيء استحقه، ومن استحق شيئاً فأُخِذ منه بغير حق فهو غصب، والغصب حرام، فعلى هذا يكون بعض ذلك على سبيل الكراهة، وبعضه على سبيل التحريم». (٢)

٥٢ ـ الجلوس في مكان الرجل إذا قام لحاجة:

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إذا قام أحدكم من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به**». (٣)

= ابن عمر وقال الترمذي «حسن صحيح» وصححه أحمد شاكر في شرحه للمسند (٦٩٩٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٥٣٢).

(١) أخرجه البخاري ٧/١٣٨، ومسلم (٢١٧٧) عن ابن عمر.

(٢) فتح الباري ١١/٦٥.

(٣) رواه مسلم (٢١٧٩).

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «قال أصحابنا: هذا الحديث فيمن جلس في موضع من المسجد أو غيره لصلاة مثلاً، ثم فارقه؛ ليعود، بأن فارقه ليتوضأ، أو يقضي شغلاً يسيراً ثم يعود ـ لم يبطل اختصاصه، بل إذا رجع فهو أحق به في تلك الصلاة، فإن كان قد قعد فيه غيره فله أن يقيمه، وعلى القاعد أن يفارقه لهذا الحديث.

هذا هو الصحيح عند أصحابنا، وأنه يجب على من قعد فيه مفارقته إذا رجع الأول.

وقال بعض العلماء: هذا مستحب، ولا يجب، وهو مذهب مالك، والصواب الأول.

قال أصحابنا: ولا فرق بين أن يقوم منه، ويترك سجادة ونحوها أم لا، فهذا أحق به في الحالين.

قال أصحابنا: وإنما يكون أحق به في تلك الصلاة وحدها دون غيرها والله أعلم». (١)

قال ابن حجر: «وقال عياض: اختلف العلماء فيمن اعتاد بموضع من المسجد للتدريس والفتوى، فحكي عن مالك أنه أحق به إذا عُرِفَ به.

قال: والذي عليه الجمهور أن هذا استحسان وليس بحق واجب، ولعله مراد مالك.

وكذا قالوا في مقاعد الباعة من الأفنية والطرق التي هي غير ممتلكة، قالوا: من اعتاد بالجلوس في شيء منها فهو أحق به حتى

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم ١٤/٣٣٤.

يتمَّ غرضُه». (١)

وقال النووي: «إلا أن أصحابنا استثنوا منه ما إذا أَلِفَ من المسجد موضعاً يفتي فيه، أو يُقْرِىء قرآناً أو غيره من الأمور الشرعية فهو أحق به، وإذا حضر لم يكن لغيره أن يقعد فيه.

وفي معناه من سبق إلى موضع من الشوارع ومقاعد الأسواق لمعاملة». (٢)

٥٣ ـ التقدم بحضرة الأكابر:

وذلك بأن يتقدمهم المرء بالحديث، فيتصدر المجلس بوجودهم، بل ربما تصدر الفتوى مع وجود من يكبره في العلم بمراحل.

ومن التقدم أيضاً أن يتقدمهم بالمجلس، فيجلس في مكان أُعِدَّ للأكابر، مما يعرضه للتنقص والازدراء، بل ربما أقيم من مكانه إذا حضر من أُعِدَّ له المكان.

«تباعد كعب الأحبار يوماً في مجلس عمر بن الخطاب، فأنكر ذلك عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، إن في حكمة لقمان، ووصيته لابنه: إذا جلست إلى ذي سلطان فليكن بينك وبينه مقعدُ رجلٍ؛ فلعله يأتيه من هو آثرُ عنده منك، فَيُنَحِّيك، فيكون ذلك نقصاً عليك». (٣)

---

(١) فتح الباري ١١/٦٦.

(٢) شرح النووي لصحيح مسلم ١٤/٣٣٤.

(٣) بهجة المجالس ١/٤٨.

وقال الأحنف: «لَأنْ أُدْعى من بعد أحبُّ إليَّ من أن أُقْصَى عن قرب». [١]

وعن الأحنف ـ أيضاً ـ أنه قال: «ما جلست مجلساً قط أخاف أن أقام منه لغيري». [٢]

فجدير بالمرء أن يجلس حيث ينتهي به المجلس؛ فذلك أدعى للتواضع، وأكمل في المروءة، وأبعد عن التنقص.

قال ابن خالويه:

إذا لم يكن صدرُ المجالس سيداً　　فلا خير فيمن صدَّرته المجالسُ[٣]

قال ابن المقفع: «إن استطعت أَنْ تضع نفسك دون غايتك في كل مجلس، ومقام، ومقال، ورأي، وفعل ـ فافعل؛ فإنَّ رَفْعَ الناسِ إياك فوق المنزلة التي تحط إليها نفسك، وتقريبَهم إياك إلى المجلس الذي تباعدت منه، وتعظيمهم من أمرك ما لم تُعَظِّمْ، وتزيينَهم من كلامك ورأيك وفعلك ما لم تُزَيِّنْ ـ هو الجمالُ». [٤]

٥٤ ـ قلة التفسح في المجالس:

فهناك من إذا جلس مجلساً أخذ فيه مكاناً واسعاً؛ لأجل أن ينعم بالراحة، ويسلم من المضايقة.

فقلة التفسح في المجالس خلق ذميم، ومسلك شائن، فهو

(١) (٢) بهجة المجالس ١/٤٧.
(٣) أقوال مأثورة ص ١٥٣ عن طرائف الحكمة ٢/٧٤.
(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ١٥١.

ناتج عن ضيق في النفس، وحب في الاستئثار، وقلة مبالاة في الآخرين.

بل إن بعضهم قد يُوسَّع له في المجلس، فيأتي ويتربع، ويأخذ مساحة واسعة في المجلس، بل ربما لا يرضى أن يأتي أحد بعد ذلك بجانبه.

قال بعض الحكماء: «رجلان ظالمان يأخذان غير حقهما: رجل وُسِّعَ له في مجلس ضَيِّقٍ فتَرَبَّعَ وتفتّح، ورجل أهديت له نصيحة فجعلها ذَنْباً». (١)

ولهذا أدبنا الله ـ عز وجل ـ بأن نتفسح في المجالس؛ لما في ذلك من زرع للمودة، وتوثيق لعرى الأخوة، وتخلص من الأخلاق الذميمة.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم**﴾ [المجادلة: ١١].

قال الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ في هذه الآية: «هذا أدب من الله لعباده إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم، أو بعض القادمين للتفسح له في المجلس ـ فإن من الأدب أن يفسحوا له؛ تحصيلاً لهذا المقصود.

وليس ذلك بضار للفاسح شيئاً، فيحصل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه.

والجزاء من جنس العمل، فإن من فسح لأخيه فسح الله له،

(١) بهجة المجالس ١/٤٧.

ومن وسع لأخيه وسع الله عليه». (١)

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «مما يُصَفِّي لك ودَّ أخيك أن تبدأه بالسلام إذا لقيته، وأن تدعوه بأحب الأسماء إليه، وأن توسع له في المجلس». (٢)

وقال الأصمعي: «كان الأحنف إذا أتاه إنسان وسَّعَ له، فإن لم يجد موضعاً تحرك؛ ليريه أنه يوسع له». (٣)

٥٥ ـ ترك الاستئذان حال دخول البيوت:

فدخـول البيوت دون استئـذان من أهلها ـ مما ينافي الأدب ومكارم الأخلاق، ومما يوجب الريبة من الداخل، ويدعو لإساءة الظن به، واتهامه باستراق الحديث وتتبع العورات.

ولذلك أدبنا الله ـ تبارك وتعالى ـ بأن نستأذن إذا أردنا دخول بيوت غير بيوتنا.

قال ـ عز وجـل ـ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيـوتكم حتى تستـأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون**﴾ [النور: ٢٧].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: «هذه آداب شرعية، أَدَّب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان أمرهم ألا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي يستأذنوا، قبل الدخول،

(١) تيسير الكريم الرحمن ٧/٣١٦.
(٢) أدب المجالسة ص ٣١.
(٣) عيون الأخبار ١/٣٠٦ وبهجة المجالس ١/٤٨.

ويسلموا بعده». (١)

وقال ـ رحمه الله ـ: «وقال قتادة في قوله **(حتى تستأنسوا)** هو الاستئذان ثلاثاً، فمن لم يؤذن له منهم فليرجع، أما الأولى فليسمع الحيّ، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة فإن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردُّوا». (٢)

وقال ابن سعدي ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية السابقة: «يرشد الباري عباده المؤمنين أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم بغير استئذان؛ فإن في ذلـك عدة مفاسد، منها ما ذكره الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث قال: «**إنما جعل الاستئذان من أجل البصر**». (٣)

فبسبب الإخـلال به يقـعُ البصـر على العـورات التي داخل البيوت؛ فإن البيت للإنسان في سَتْرِهِ عورةَ ما وراءه بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها أن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالشر سرقة أو غيرها؛ لأن الدخول خفية يدل على الشر.

ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم، **(حتى تستأنسوا)** أي تستأذنوا.

سمي الاستئذان استئناساً؛ لأن به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة». (٤)

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٧٢.

(٣) رواه البخاري ٧/ ١٣٠ عن سهل بن سعد.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٣/٣٩٣.

ثم قال ـ رحمه الله ـ: «**ذلكم**» أي الاستئذان المذكور «**خير لكم لعلكم تذكرون**» لاشتماله على عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة، فإن أذن دخل المستأذن.

﴿**فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا**﴾ أي فلا تمتنعوا من الرجوع، ولا تغضبوا منه؛ فإن صاحب المنزل لم يمنعكم حقّاً واجباً لكم، وإنما هو متبرع، فإن شاء أذن أو منع؛ فأنتم لا يأخذ أحدَكم الكبرُ والاشمئزاز من هذه الحال». (١)

ولهذا ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع**». (٢)

والاستئذان يكون بالنداء، والسلام، وقرع الباب، ونحو ذلك. (٣)

٥٦ ـ ترك السلام حال دخول المجلس وحال الخروج منه:

فالسلام الأول إيذان بالدخول، والسلام الآخر إيذان بالانصراف.

وهذا من الأدب الجميل الذي يورث المحبة بين المؤمنين.

وتركه دليل على الجفاء والغلظة، وذلك مما يورث البغضاء والنفرة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٣/ ٣٩٤ـ٣٩٤.

(٢) البخاري ٧/ ١٣٠ عن أبي موسى الأشعري.

(٣) انظر إصلاح المجتمع ص ١٦٨.

ولهذا قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم، فإن بدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فليسلم؛ فليست الأولى بأحق من الآخرة**».(١)

٥٧ ـ الإخلال بأمانة المجالس:

فمن الناس من يحضر المجالس فلا يراعي حرمتها، ولا يحفظ حقوقها، بل تراه يسرد أخبارها، ويفشي أسرارها.

وهذا ضرب من ضروب الخيانة، ومظهر من مظاهر الإخلال بالأمانة؛ فكم من حبال تقطعت، وكم من مصالح تعطلت؛ لاستهانة بعض الناس بأمانة المجالس، وذِكْرِهم ما يدور فيها.

فالمجالس لها حرمات يجب أن تصان، ما دام الذي يجري فيها مقيداً ومضبوطاً بقوانين الأدب وشرائع الدين.

أما إذا كانت المجالس مجالس خَنَاً وزورٍ، تزاول فيها المنكرات، وتشرب فيها الخمور، وتسفك فيها الدماء المحرمة، ويمكر فيها بالأبرياء، ويخطط فيها للفساد ـ فلا حرمة لها؛ وعلى كل مسلم شهدها أن يسارع للحيلولة دون الفساد جهد طاقته.

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**المجالس بالأمانة إلا**

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٢٨٧، والترمذي (٢٧٠٦)، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٠٧)، وابن حبان (٤٩٤ ـ ٤٩٥ ـ ٤٩٦)، والبغوي في شرح السنة (٣٣٢٨) كلهم عن أبي هريرة وقال الترمذي: «حديث حسن»، وصححه أحمد شاكر في شرحه للمسند (٧٨٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٧٥٧).

مجلس سفك دم حرام أو فرج حرام، أو اقتطاع مال حرام». (١)

ومن الإخلال بأمانة المجالس أن يفشي المرء سر صاحبه إذا جلس إليه، وأفضى إليه بمكنونه، وأشعره بأنه لا يحب اطلاع أحد عليه.

فإفشاء السر من الأخلاق المرذولة، وهو مركب من الخرق والخيانة؛ فليس بوقور من لم يضبط لسانه، ولم يتسع صدره لحفظ ما يُسْتَسَرُّ به. (٢)

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إذا حدث الرجل ثم التفت فهي أمانة**». (٣)

«قال عمر بن عبدالعزيز لمحمد بن كعبٍ القرظي: أي خصال الرجل أوضع؟.

قال: كثرة كلامه، وإفشاؤه سِرَّه، والثقة بكل أحد». (٤)

قال الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: «كن حافظاً للسر، معروفاً عند الناس بحفظه؛ فإنهم إذا عرفوا منك هذه الحال أفضوا إليك بأسرارهم، وعذروك إذا طويت سر غيرك الذي هم عليه مشفقون،

---

(١) أخرجه أبود داود (٤٨٦٨)، وأحمد ٣/٣٤٢ـ٣٤٣، عن جابر وضعفه الألباني في السلسلة (١٩٠٩).

(٢) انظر تهذيب الأخلاق للجاحظ ص ٣١.

(٣) أخرجه أحمد ٣/٣٢٤ـ٣٥٢ـ ٣٧٩، وأبو داود (٤٨٦٨)، والترمذي (١٩٩٩) عن جابر وقال الترمذي: (حديث حسن)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٠).

(٤) العزلة للخطابي ص ١٦٩.

وخصوصاً إذا كان لك اتصال بكل واحد من المتعادين؛ فإن الوسائل لاستخراج ما عندك تكثر وتتعدد من كل من الطرفين، فإياك إياك أن يظفر أحد منهم بشيء من ذلك تصريحاً أو تعريضاً.

واعلم أن للناس في استخراج ما عند الإنسان طرقاً دقيقةً، ومسالكَ خفيةً؛ فاجعل كل احتمال ـ وإن بعد ـ على بالك، ولا تؤتَ من جهة من جهاتك؛ فإن هذا من الحزم.

واجزم بأنك لا تندم على الكتمان، وإنما الضرر، والندم في العجلة، والتسرع، والوثوق بالناس ثقةً تحملك على ما يضر». [1]

٥٨ ـ التجسس والتحسس:

أصل التجسس تعرف الشيء عن طريق الجس أي الاختبار باليد.

والتحسس هو تعرف الشيء من طريق الحواس، ثم استعملا في البحث عن عيوب الناس.

وقيل: إن الأولَ البحثُ عن العورات، والثاني الاستماعُ لحديث القوم.

وقيل: إن الأول البحث عن بواطن الأمور، وأكثر ما يكون في الشر.

والثاني: ما يدرك بحاسة العين والأذن.

وقيل: التجسس: تتبع العورات لأجل غيره، والتحسس تتبعها لنفسه. [2]

---

(١) الرياض الناضرة ص ٢١٠.

(٢) انظر الأدب النبوي ص ١٣٧ وسوء الخلق للكاتب.

والحاصل أن التجسس والتحسس خلقان مذمومان.

فالواجب على المسلم أن يكتفي من إخوانه بالظاهر، وأن يَكِلَ الباطن إلى العليم الخبير.

ومن صور التجسس والتحسس ما تجده عند بعض الناس، حيث يجلس في مكان ما، لا يراه أحد من الجالسين فيه، فيستمع ما يدور بينهم، إما للإيقاع بهم، وإما لإشباع فضوله وتطفله.

ومن ذلك ـ أيضاً ـ أن يرخي الإنسان أذنه؛ لسماع حديث بين اثنين يتناجيان في مجلس ما.

ومن ذلك أن يقف المرء وراء من يكتب شيئاً أو يقرؤه؛ ليطلع عليه.

فيجب على المسلم أن يحذر التجسس والتحسس، وأن ينأى بنفسه عن هذه الأخلاق المرذولة، التي حرمها الله على عباده المؤمنين، ونهاهم عن فعلها والاتصاف بها.

قال ـ عز وجل ـ ﴿**ولا تجسسوا**﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ولا تحسسوا ولا تجسسوا**». (١)

أما إذا كان التجسس والتحسس طريقاً لدرء مفسدة عظيمة، أو جلب مصلحة كبيرة ـ فلا بأس في ذلك، كما لو علمنا بأن أناساً عزموا على ارتكاب جريمة قتل أو سرقة أو نحو ذلك، فتجسسنا عليهم؛ لنحول بينهم وبين ما يشتهون ـ فلا حرج في ذلك، بل قد يجب على من يعنيه الأمر.

---

(١) رواه البخاري (٧/٨٨) ومسلم (٢٥٦٣).

٥٩ ـ الجلوس في الطرقات دون إعطائها حقّها:

فهناك من يجلس في الطرقات العامة، التي يسلكها الرجال والنساء، ويمر بها الأشراف والسفهاء، ويختلط فيها الحابل بالنابل، فيعرض هذا الجالس نفسه للفتن، وللتقصير في أداء حق الطريق. (١)

ولهذا نهينا عن الجلوس في الطرقات.

فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**إياكم والجلوس في الطرقات.**

فقالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بدٌّ، نتحدث فيها.

فقال: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقَّه.

قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟

قال: غض البصر، وكف الأذى، وردُّ السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». (٢)

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث: «هذا الحديث كثير الفوائد، وهو من الأحاديث الجامعة، وأحكامه ظاهرة، وينبغي أن يجتنب الجلوس في الطرقات لهذا الحديث.

ويدخل في كف الأذى اجتناب الغيبة، وظن السوء، وإحقار المارين، وتضييق الطريق.

وكذا إذا كان القاعدون ممن يهابهم المارُّون أو يخافون منهم، ويمتنعون من المرور في أشغالهم بسبب ذلك؛ لكونهم لا يجدون

---

(١) انظر فتح الباري ١١/١٣ ـ ١٤ وإصلاح المجتمع ص ١٤١ ـ ١٤٩.

(٢) أخرجه البخاري ـ الفتح ـ ٧/١٢٦ ومسلم (٢١٢١) عن أبي سعيد.

طريقاً إلا ذلك الموضع». [١]

هذا وللطرقات آداب أخرى غير ما ذكر في الحديث السابق، فقد ورد ذكرها في أحاديث آخر، وقد بلغ مجموع تلك الآداب أربعة عشر أدباً كما قال ابن حجر في الفتح، وقد نظمها ـ رحمه الله ـ في الأبيات التالية، حيث يقول:

جَمَعْتَ آدابَ من رام الجلوسَ على الطريق من قول خير الخلق إنسانا
أفشِ السلامَ وأحسن في الكلام وشمِّتْ عاطساً وسلاماً رُدَّ إحسانا
في الحمل عاونْ ومظلوماً أعِنْ وأغِثْ لهفانَ أهدِ سبيلاً واهد حيرانا
بالعرف مُرْ وانْهَ عن نُكْرٍ وكفَّ أذىً وغُضَّ طرفاً وأَكْثِرْ ذِكْرَ مولانا[٢]

٦٠ ـ فقدان المودة والصفاء، وشيوع الكراهية والبغضاء:

فالمجالس التي تجمع الناس، ويكثر أهلها من ارتيادها والاختلاف إليها ـ يُفْتَرض فيها أن تكون مجالس خير وبركة، وأنس ومودة، تسودها الألفة والإخاء، ويرفرف في أفيائها الصفاء والنقاء، ويجد فيها المرء فرحه وسروره، ويطرح في ساحها همومه وأنكاده وغمومه.

إلا أن المتأمل لكثير من المجالس لا يجد إلا عكس ما مضى؛ فيكثر فيها الخلاف، ويغلب على مرتاديها سوء الظن، وتشيع فيما بينهم العداوة والبغضاء، ويكثر فيهم الحسد والبغي والاستطالة.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٤/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥.
(٢) فتح الباري ١١/ ١٣.

فإذا رأيت أصحابها ظننتهم إخوة متآلفين من كثرة ما يلقى بعضهم بعضاً.

وإذا كشفت عن سالفتهم، وتبَيَّنْتَ حقيقة أمرهم ـ وجدت قلوباً متنافرة، وضلوعاً على الضغينة مَحْنِيَّة؛ فالواحد منهم يحذر جلساءه، ويتحفظ منهم أشد التحفظ، فإذا قال كلمة خشي من تكذيبهم له، أو سخريتهم به، وإذا همَّ بالقيام من المجلس خاف من لمزهم وغيبتهم له بعد فراقه المجلس.

قال الخطابي ـ رحمه الله ـ: «قال بعض الناس: إني لا أُشَبِّه أهل هذا الزمانِ إذا رأيتهم قد تلاقوا في المحافل، وتدانوا في المجالس، وتحالَّتْ[١] بهم الرُّكبُ ـ إلا بقوم تصافُّوا مستعدين لمحاربة أعدائهم، وتضافروا مُتَأَهِّبين لمناصبة أقرانهم، فشهدوا مركز اللقاء بسيوف مشهورة، وأَسِنَّة مطرورة[٢]، وقِسِيٍّ مُوَتَّرةٍ[٣]، وسهام مُفَوَّقَةٍ[٤]؛ فتطاعنوا ضرباً بسيوفهم، ودعساً[٥] برماحهم، وتراشقوا خَصْلاً[٦] سهامهم، حتى انْفَلَّتْ سيوفهم، وكَلَّت أيديهم، ونتلت كنائنهم[٧] عن آخر أهزع[٨]؛ فأجْلَت المعركة بينهم عن قتيل تشخب

---

(١) تحالت: نزلت.
(٢) مطرورة: ذات طُرَّةٍ وهيئة حسنة.
(٣) مُوتَّرة: مشدودة، وتر القوس أي شدَّ وتَرها.
(٤) مُفَوَّقة: أي وضعت في الوتر؛ ليرمى بها.
(٥) دعساً: طعناً.
(٦) خصلاً: خَصَل السهم: أي وقع بِلِزْق الهدف.
(٧) كنائنهم: جمع كنانة وهي جعبة السهام.
(٨) أهزع: الأهزع السهم الذي يبقى في أسفل.

أوداجُه، وجريح يفيح عانده[١]، ومُرْتَثٌّ[٢] لا نهوض به، ومُثْخَنٍ ينوء على ضِلعِه.

فذلك الوجه والمثال فيما شبهته لك من صنيع أهل هذا الزمان إذا ضمتهم المجالس، ولَفَّتْهم الملاقي والمجامعُ؛ فتصور الآن قلوبهم، وما تَجُنُّه ضمائرهم من الغل والحسد، وما تحني عليه ضلوعهم من الإحن والضغائن قِسيّاً موترة، وألسنتهم وما يرْمون به من القول سهاماً مفوقة.

نصبوا أعراض الناس أغراضاً، وافترضوا بها افتراضاً؛ فهم إذا تأملتهم وجدتهم على طبقات شتى، منهم ذو القحة[٣] الذي يكاشف بالشتم الصريح مكاشفة، ويجاهر باللفظ القبيح مجاهرة ومعالنة[٤]، ومنهم من يعرض بالأذى ويَكْني ويُمرّض[٥] القول به ويورِّى، ومنهم من يؤذي صاحبه بالمسارَّةِ والنجوى والمباثة والشكوى، ومنهم من يشجو أخاه بغمز العينين، وزَيٍّ[٦] الحاجبين، ورمز الشفتين[٧]، وكرف العرنين.[٨]

---

(١) يفيح عانده: يفيح أي تَنْصَبُّ، والعاند الجرح الذي يسيل ولا يجف.
(٢) المرتث: الصريع الذي يثخن في الحرب وبه رمق ثم يموت.
(٣) ذو القحة: قليل الحياء.
(٤) معالنة: المجاهرة.
(٥) يمرض القول: يوهنه.
(٦) زيِّ الجبين: جمعه وقبضه.
(٧) رمز الشفتين: الإشارة والإيماء بهما.
(٨) كرف العرنين: شَمُّه.

وأسلمهم جانباً من لا يعاجل بالسوء معاجلة، ولا يؤاخذ بالذنب بغتةً، لكن يحصي الأنفاس، ويعد الحروف والألفاظ، ويحفظها ليوم حاجته، وأوان فرصته، فَيُبَكِّت بها، ويُعَيِّر ويطنب فيها أو يُقصّر على شاكلة قول الشاعر:

احذر مودةَ ماذِقٍ[١] شاب المرارةَ بالحلاوهْ
يحصي العيوب عليك أيْـ ـيَام الصداقة للعداوهْ[٢]

٦١ ـ قلة ذكر الله في المجالس:

فكثير من المجالس ـ والله المستعان ـ تعمر بالقيل والقال، وباللغو واللغط، ويقل فيه ذكر الله ـ تعالى ـ والصلاة على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وهذا الأمر مدعاة لنزع البركة، وحلولِ النقمة والحسرة.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله ـ تعالى ـ فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان لهم حسرة»**.[٣]

وعنه ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله ـ تعالى ـ فيه ولم يصلوا على**

---

(١) الماذق: من المماذقة في الود وهي ضد المخالصة.

(٢) العزلة للخطابي ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٣) رواه أبو داود (٤٨٥٥)، وأخرجه أحمد ٢/٣٨٩ ـ ٥١٥، وأخرجه الحاكم ١/١٩٢، وصححه الحاكم عن أبي هريرة، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسة الصحيحة (٧٧).

نبيهم فيه ـ إلا كان عليهم تِرَةً؛ فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم» .[١]

٦٢ ـ قلة المبالاة بقول كفارة المجلس:

فكثير من الناس يطلق العنان للسانه، فيكثر لغطه ولغوه، ثم يقوم من المجلس دون أن يقول الدعاء الوارد في نهايته.

وهناك من الناس من لا يحافظ على هذا الدعاء مع ما فيه من الفضل العظيم، بل يقوله أحياناً دون محافظة عليه.

فاللائق بالمسلم أن يحافظ على هذا الدعاء؛ حتى يحصل على الأجر العظيم المترتب على قوله، وليسلم من تبعات ما صدر منه في ذلك المجلس.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«من جلس في مجلس، فَكَثُرَ فيه لَغَطُه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك ـ إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك»** .[٢]

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٤٤٦ ـ ٤٥٣، والترمذي (٣٣٨٠)، والحاكم ١/٤٩٦، والبيهقي ٣/٢١٠ كلهم عن أبي هريرة، وقال الترمذي «حديث حسن صحيح»، وصححه الحاكم، والألباني في صحيح الجامع (٥٤٨٣).

(٢) أخرجه أحمد ٢/٤٩٤، والترمذي (٣٤٣٣)، والبغوي (١٣٤٠)، والحاكم ١/٥٣٦، وابن حبان (٥٩٤)، عن أبي هريرة وقال الترمذي «حديث حسن غريب صحيح» وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٦٨).

وعن أبي برزة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول بأخرةٍ[1] إذا أراد أن يقوم من المجلس: «**سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك**».

فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى.

قال: «**ذلك كفارة لما يكون في المجلس**».[2]

قال ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ: «وروي عن جماعة من أهل العلم بتأويل القرآن في قول الله ـ عز وجل ـ ﴿**وسبح بحمد ربك حين تقوم**﴾ [الطور: ٤٨] منهم مجاهد، وأبو الأحوص، وعطاء، ويحيى ابن جعدة، قالوا: حين تقوم من كل مجلس تقول فيه: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك.

قالوا: ومن قالها غفر له ما كان منه في المجلس.

وقال عطاء: إن كنت أحسنت ازددت إحساناً، وإن كان غير ذلك كان كفارة.

ومنهم من قال: تقول حين تقوم: سبحان الله وبحمده من كل مكان، ومن كل مجلس».[3]

---

(١) بأَخَرَة: بفتح الهمزة والخاء: أي في آخر عمره.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٥٩)، والحاكم ١/٥٣٧، والدارمي ٢/٧٣٦ (٢٥٥٩) عن أبي برزة الأسلمي، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٠٦٨): «حسن صحيح».

(٣) بهجة المجالس ١/٥٣.

الخاتمـــة

هذا ما يَسَّر الله جمعه، وأعان على إتمامه، من تبيان لبعض الأخطاء التي تقع في أحاديثنا ومجالسنا .

وفي نهـاية المطاف أسأل الله ـ سبحانه ـ بأسمائه الحسنى، وصفـاته العلى ـ أن ينفع بهذه الصفحات، وأن يجعلها معينة على البر، دافعة إلى الخير.

كما أسأله ـ تبارك وتعالى ـ أن يستعملنا في طاعته، وأن يجعل أحاديثنا ومجالسنا عامرة بذكره، مقربة إلى رضوانه وجنته.

كمـا آمـل من القـارىء الكـريم ألا يحرم أخاه من ملاحظة يبديها، أو دعوة صالحة يهديها.

وعسى ألا أكون أثقلت على القراء، أو ضَيَّقْتُ عليهم، فما **﴿أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾** [هود، ٨٨].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

الفهـرس

ـ المقدمـــة ٣
١ ـ الثرثـــرة ٥
٢ ـ الاستئثار بالحديث ٨
٣ ـ الحديث عن النفس على سبيل المفاخرة ٩
٤ ـ الغفلة عن مغبة الكلام ١١
٥ ـ قلة المراعاة لمشاعر الآخرين ١٤
٦ ـ التعميم في الذم ١٦
٧ ـ كثرة الأسئلة، وتعمد الإحراج فيها ١٨
٨ ـ سرعـــة الجـــواب ١٩
٩ ـ الحرص على إبداء الرأي في كل صغيرة وكبيرة ٢١
١٠ـ التعرض للسفلة والسفهاء ٢٣
١١ـ الحديث بما لا يناسب المقام ٢٥
١٢ـ الحديث عند من لا يَرْغَبُ ٣٠
١٣ـ تكرار الحديث ٣٢
١٤ـ التعالي على السامعين ٣٣
١٥ـ ترك الإصغاء للمتحدث ٣٤
١٦ـ الاستخفاف بحديث المتحدث ٣٦
١٧ـ المبادرة إلى إكمال الحديث عن المتحدث ٣٧
١٨ـ القيام عن المتحدث قبل أن يكمل حديثه ٣٩
١٩ـ المبادرة إلى تكذيب المتحدث ٤٠
٢٠ـ التقصير في محادثة الصغار ٤١
٢١ـ الوقيعة في الناس ٤٥

٢٢ـ التسرع في نشر الأخبار قبل التثبت منها ومن جدوى نشرها ٤٦
٢٣ـ الكـــذب ٤٧
٢٤ـ سماع كلام الناس بعضهم ببعض، وقبول ذلك دون تمحيص أو تَثَبُّت ٤٩
٢٥ـ رفـع الصـــوت ٥٠
٢٦ـ الغلظة في الخطاب ٥١
٢٧ـ الشدة في العتاب ٥٦
٢٨ـ التقصير في أدب الهاتف ٦١
أ ـ قلة المبالاة بصحة الرقم المطلوب ٦٢
ب ـ شدة الغضب حال الاتصال الخطأ ٦٢
جـ ـ قلة المراعاة لوقت الاتصال ٦٢
د ـ الإطالة بالمكالمة بلا داعٍ ٦٣
هـ ـ قلة الاعتداد بالسلام من المتَّصِل بدايةً ونهايةً ٦٣
و ـ سكوت المتَّصِلِ إذا رُفِعت السماعة ٦٣
ز ـ التعمية على المتَّصَل عليه ٦٤
ح ـ خضوع المرأة بالقول حال المهاتفة واسترسالها بالحديث مع الرجال ٦٤
ط ـ إزعاج الناس بالأخبار الكاذبة ٦٥
ي ـ تسجيل صوت المتكلم دون إذنه وعلمه ٦٥
ك ـ المعاكسات الهاتفية ٦٥
٢٩ـ التقصير في أدب الحوار ٦٦
أ ـ قلة الإخلاص ٦٨
ب ـ الدخول في النيات ٦٩
جـ ـ الغضـــب ٦٩

د - الهجر والصرم ٦٩
هـ - إغفال الجوانب العاطفية ٧٠
و - قلة الإنصاف ٧١
ز - التهكم بالمحاور ٧٥
ح - التحدي والإفحام ٧٥
ط - تفخيم النفس ٧٧
ي - تجاهل اسم المحاور ٧٨
ك - التنازل عن المبدأ الثابت ٧٨
ل - الإصرار على الخطأ، والأنفة من الرجوع إلى الحق ٨٠
م - قلة العلم بمادة الحوار ٨٣
ن - إصدار الأحكام في مستهل الحوار ٨٥
س - قلة المراعاة لعامل الزمان والمكان ٨٦
ع - التشعب في الحوار، والخروج عن المضمون ٨٧
ف - محاورة ذي المهابة العظيمة ٨٧
٣٠- الجدال والمراء والخصومة ٨٧
٣١- حب المعارضة والمخالفة ٩٣
٣٢- بذاءة اللسان، والتفحش في القول ٩٥
٣٣- التَّقَعُّرُ في الكلام ٩٩
٣٤- الخوض فيما لا طائل تحته ١٠٣
٣٥- كثرة التلاوم ١٠٥
٣٦- كثرة الشكوى إلى الناس ١٠٦
٣٧- كثرة الحديث عن النساء ١٠٧
٣٨- كثرة الهزل ١٠٨
٣٩- كثرة المزاح ١٠٩

٤٠- كثرة الحلف ١١١
٤١- تتبع عثرات الجليس ١١٢
٤٢- إظهار الملالة من الجليس ١١٣
٤٣- تكليف الرجل جلاَسه بخدمته ١١٧
٤٤- تناجي الاثنين دون الواحد ١١٨
٤٥- القيام بما ينافي الذوق في المجالس ١٢٠
٤٦- مزاولة المنكرات في المجالس ١٢١
٤٧- حضور مجالس اللغو ومداهنة أهلها ١٢١
٤٨- الجلوس على هيئة تشعر بقلة الأدب ١٢٣
٤٩- الجلوس وسط الحلقة ١٢٤
٥٠- التفريق بين اثنين متجالسين دون إذنهما ١٢٤
٥١- إقامة الرجل من مجلسه والجلوس مكانه ١٢٥
٥٢- الجلوس في مكان الرجل إذا قام لحاجة ١٢٥
٥٣- التقدم بحضرة الأكابر ١٢٧
٥٤- قلة التفسح في المجالس ١٢٨
٥٥- ترك الاستئذان حال دخول البيوت ١٣٠
٥٦- ترك السلام حال دخول المجلس وحال الخروج منه ١٣٢
٥٧- الإخلال بأمانة المجالس ١٣٣
٥٨- التجسس والتحسس ١٣٥
٥٩- الجلوس في الطرقات دون إعطائها حقّها ١٣٧
٦٠- فقدان المودة والصفاء، وشيوع الكراهية والبغضاء ١٣٨
٦١- قلة ذكر الله في المجالس ١٤١
٦٢- قلة المبالاة بقول كفارة المجلس ١٤٢
- الخاتمة ١٤٤
- المحتويات ١٤٥